الباب السادس

تطور الغلو

obeikandl.com

opeikandl.com

الفصل الأول

غلاة الجعفرية

الخطابية

بينما كانت الإمامية تشق طريقها المنهجي ، ويفتق كما قلنا مراراً رجالها وعلماؤها المذهب ، ويضعون أركانه ، ويتبنون نظريات فلسفية – رواقية وأرسطاطاليسية أحياناً ، لتدعيم المذهب – كان الغلو الشيعي يأخذ مداه المخيف في الكوفة مرة ثانية ، فلم ينته الغلو بمقتل أبي منصور العجلي ، ولا بمقتل عبد الله ابن معاوية ، بل ظهر في أبشع صورة لدى شخصية احتلت أكبر مركز في تاريخ الغلاة ، وأقلقت مضجع الدولة ، كما أقلقت مضجع الإمام جعفر الصادق في بيته الهادئ في المدينة ، أما هذه الشخصية فهي شخصية أبي الخطاب الأسدي (المقتول عام ١٣٨هـ) .

أما اسمه الكامل فهو محمد بن مقلاص أبو زينب الأسدي الكوفي الأجدع الزراد البزاز– ويكنى تارة أبا الخطاب وأخرى أبا الظبيان وثالثة أبا إسماعيل ، وقد نشأ بالكوفة ، ثم تردد على الإمام جعفر الصادق وأخذ عنه ، وقد وردت روايات متعددة عن مقامه لدى الإمام .

أما الأولى : « قال عنبسة قال لي : أبو عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) : أي شيء سمعت من أبي الخطاب . قال : سمعته يقول : إنك وضعت يدك على صدره وقلت له « عه ولا تنس » وإنك تعلم الغيب . وإنك قلت له : هو غيبة علمنا وموضع سرنا وأمين على أحيائنا وأمواتنا .

أما الثانية فهي للخصيبي النصيري قال : جعفر قال لأبي الخطاب : يا محمد : أخاطبك بما خاطب به رسول الله ﷺ سلمان . وقد دخل عليه عند أم أيمن وقال : أصبحت يا سلمان غيبة علمنا ، ومعدن سرنا ، ومجمع أمرنا ونهينا ، ومؤدب المؤمنين بآدابنا . أنت والله الباب الذي يؤدي إلى علمنا . وفيك ينبأ علم التأويل والتنزيل وباطن السر وسر السر ، فبوركت أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً وحياً وميتاً . فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقلته أنا لك يا أبا محمد [1]

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٧ ، ٤٨ .

والنص الأول عن عنبسة الناووسى والثانى عن الخصيبى النصيرى . وكلاهما غاليان ، وروايتهما مردودة . وفى النصين محاكاة لأسلوب جعفر ، فهل هما لجعفر فعلاً ، حينما كان أبو الخطاب يتردد عليه ويتابعه فى اقتصاد ؟

إن الكشى – وهو مؤرخ رجال الشيعة ، يذكر أن هذه الأخبار التى رواها أبو الخطاب عن جعفر قد عرضت على الإمام نفسه فكذبها وأنكرها ، بل إن الإمام جعفراً قال : ما مس شيء من جسدى جسده إلا يده »[١] . كما يذكر الكشى أن الإمام جعفراً قال : « اللهم العن أبا الخطاب ، فإنه خوفنى قائماً وقاعداً وعلى فراشى اللهم أذقه حر الحديد » ثم أورد روايات متعددة تدل على ذمه[٢] . وأيّاما كان الأمر ، فإن أبا الخطاب الأسدى قد تردد على جعفر الصادق بعض الوقت ، ثم عاد إلى الكوفة ، وأخذ ينشر مبادئه ويكون فرقته وقد التف حوله وآمن بدعوته بعض فلول المنصورية من أتباع أبى منصور العجلى ، كما أن فلول الجناحية من أتباع عبد الله بن معاوية قد أسرعت إليه ، وكان الرجل على مهارة وذكاء ودقة ومرونة فى تنظيم الدعوة ، وكان يدعو أولاً باسم جعفر الصادق ، ويبدو من رواية الكشى أن أول دعوته هى نسبة العلم الغيبى إلى جعفر ، فلما « وقف الصادق على غلوه الباطل فى حقه ، تبرأ منه ولعنه ، وأخبر أصحابه بالبراءة منه ، وتشدد القول فى ذلك ، وبالغ فى التبرئ منه واللعن عليه »[٣] . وثبت تماماً أن الرجل اتصل بجعفر أول الأمر ، وأن جعفراً قد قربه إليه ما يذكره أحد أتباع جعفر وهو عيسى بن أبى منصور شلقان لإسماعيل بن الإمام جعفر « قلت لأبى الحسن – وهو يومئذ غلام قبل أوان بلوغه : جعلت فداك ما هذا الذى يسمع من أبيك (جعفر) إنه أمرنا بولاية أبى الخطاب ، ثم أمرنا بالبراءة منه. فقال أبو الحسن من تلقاء نفسه : إن الله خلق الأنبياء على النبوة. فلا يكونون إلا أنبياء . وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين . واستودع قوماً إيماناً ، فإن شاء أتمه وإن شاء سلبهم إياه . وإن أبا الخطاب كان ممن أعاره الله الإيمان فلما كذب على أبى سلبه الله الإيمان[٤] » .

هذه هى أول الدعوة ، وكان جعفر الصادق يكره نسبة العلم الغيبى إليه – وكان أبو الخطاب ينسب إلى جعفر أيضاً معرفة الاسم الأعظم ، وأنه علمه إياه وجعله قيمه ووصيه من بعده[٥] .

ثم حين تبرأ منه جعفر ادعى الأمر لنفسه ، ويذهب القاضى أبو حنيفة النعمان الإسماعيلى إلى أن

---

(١) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٨ وانظر أيضاً الدكتور الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٤٢ .

(٢) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٧ – ١٨٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) الكشى : معرفة الرجال ٢١١ .

(٥) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٢ .

أبا الخطاب كان من أجل دعاة جعفر الصادق «فأصابه ما أصاب المغيرة فكفر وادعى أيضاً النبوة وزعم أن جعفر بن محمد إله ، ثم استحل المحارم كلها ورخص فيها . ويذكر أن أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه . وقالوا : يا أبا الخطاب . خفف علينا ، فيأمرهم بتركها ، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور وقال : من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ، فبلغ أمره جعفر بن محمد ، فلم يقدر عليه أكثر من لعنه وتبرأ منه وجميع أصحابه فعرفهم بذلك ، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه [١] .

أما النوبختى الاثنا عشرى فقد ذهب إلى أن أبا الخطاب كان يدعى أن جعفراً الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده ، وأن جعفراً علمه اسم الله الأعظم ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى أنه من الملائكة وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم» ثم قالوا – أى الخطابية – «إن أبا الخطاب نبى مرسل أرسله جعفر وأمر بطاعته وأحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وتركوا الصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض . وقالوا : من سأله أخوه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه ويشهد له ! فإن ذلك فرض واجب وجعلوا الفرائض رجالاً سموهم والفواحش والمعاصى رجالاً وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا خفف عنا بأبى الخطاب ووضع عنا به الأغلال والآصار – يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج – فمن عرف الرسول النبى الإمام فليصنع ما أحب» [٢] .

ويبدو أن دعوة أبى الخطاب لم تصل إلى هذا الحد فى مرحلتها الأولى . فإذا كان أبو الخطاب حقًّا من أجل دعاة جعفر ، فما كان جعفر يسكت أبداً عنه منذ البداية ، وقد كان لجعفر عيون وأنصار ورجال من كبار المتكلمين فى الكوفة .

بل يبدو أن تلك كانت المرحلة الثانية فى دعوة أبى الخطاب ، حين تبرأ منه جعفر . بدأ ينظم الدعوة لنفسه ، ويستغل كل ما وصل إليه من عقائد الغلاة من قبله ، وبدأ يقيم هذا المجتمع الباطنى الإباحى حوله ، ولم تكن سوى امتداد لمجتمع غال تكرر مراراً فى الكوفة . وأعلن أبو الخطاب ، كما أعلنت الخطابية من بعده أن الإمام جعفر بن محمد الصادق أودعهم الجفر ، وفيه كل مايحتاجون من علم الغيب وتفسير القرآن [٣] . وهذا يدل دلالة واضحة على أن مركز الدائرة فى دعوة أبى الخطاب إنما كانت فى نسبة الغيبى والسرى إلى جعفر ، وأن جعفراً أودعه أبا الخطاب . ثم غلا فى تصويره لحقيقة

---

(١) القاضى النعمان : دعائم السلام ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) النوبختى : الشيعة ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٢ .

الإمام الذى أحبه . ويذكر أبو خلف القمى عنه أنه قال : « رأيت أبا عبد الله (أى جعفراً الصادق) فى الحجون جالساً . فقلت له : يا سيدى أرنى نفسك فى عظمتك وملكوتك فقال له : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى . قال فبسط يده على الأرض فإذا السموات والأرضون والخلائق فى قبضته . ثم قال : فأرنى ركن الحجر الأسود ، فإذا البيت قد رفعه على أصبعه فى الهواء ، وإذا من حوله قردة وخنازير . وإذا موضع البيت بحيرة قطران أسود . ثم رده كما كان . وقال : هذا مركز الشيطان ومأوى إبليس[1] » . فلما انفصل الرجلان بدأ أبو الخطاب يضع دعوته النهائية ، ويأخذ جملة آراء المغيرية والمنصورية .

آراء أبى الخطاب الأسدى :

يذهب الشهرستانى إلى أن أبا الخطاب كان يعلن أن الأئمة أنبياء ثم انتهى إلى القول بأنهم آلهة . أى أنه نادى بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه . والإلهية نور فى النبوة ، والنبوة نور فى الإمامة ، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار . وزعم أن جعفراً هو الإله فى زمانه ، وليس هو المحسوس الذى يرونه ، لكن لما نزل إلى هذا العالم ، لبس تلك الصورة فرآه الناس[2] هذا هو نقل الشهرستانى للمذهب ويبدو أن الرجل كان يؤمن بنظرية « الحلول » أن الله نور من الأنوار ، وأن هذا النور يحل فى الأنبياء والأئمة ، بل إن البغدادى نفسه يضعه فى فرقة الحلولية ،[3] ونحن نعلم أن نظرية النور المحمدى كانت قد بدأت فى عصر جعفر الصادق ، وتكلمنا عن أصلها الأفلاطونى المحدث ونظرية الكلمة المسيحية اختلط هذا كله فى مذهب أبى الخطاب مع نظرية النور الثنوية الغنوصية .

غير أنه ينبغى أن نتفهم فى ضوء النصوص المتعارضة آراء أبى الخطاب الأسدى فى حقيقة الأئمة . أن الأشعرى ، وهو أقدم من البغدادى والشهرستانى يقول إن الخطابية تزعم « أن الأئمة أنبياء محدثون ورسل الله وحججه على خلقه ، ولا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت ، فالناطق محمد ﷺ ، والصامت على بن أبى طالب ، فهم فى الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما سيكون وما هو كائن[4] . وتكاد تجمع المصادر على أن أبا الخطاب هو أول من نادى بنظرية الإمام الناطق والإمام الصامت ، وتنسب إليه القول بأنه لابد من رسولين فى كل عصر ، ولا تخلو الأرض من واحد ناطق ، وآخر صامت وقال فى ذلك الآية « ثم أرسلنا رسلنا تترى[5] .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٥ .
(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٠٠ ٪ ٣٠١ .
(٣) البغدادى : الفرق ١٣٧ .
(٤) البغدادى : الفرق ص ١٣٨ .
(٥) أبو خلف القمى : المقالات ص ٥١ .

ويضيف البغدادى إلى هذا أنهم قالوا إن علياً صار بعد النبى ﷺ ناطقاً ، وهكذا يقولون فى الأئمة إلى أن انتهى الأمر إلى جعفر ، وكان أبو الخطاب فى وقته إماماً صامتاً وصار بعده ناطقا (١) .

هل كانت هذه هى دعوة أبى الخطاب ، وهل ادعى أنه حجة الإمام النبى ووصيه وقيمه ؟ أم أنه ادعى أنه نبى ، كما ادعى أن جعفراً هو الإله فى زمانه ، وليس هو المحسوس الذى يرونه ، ولكن لما نزل إلى هذا العالم ، ليس تلك لصورة ، فرآه الناس فيها (٢) » النصوص متعارضة ومتناقضة ، فبينما يذكر أنه كان يقول بأن جعفراً نبى ، وأنه من الرسل فرض على الناس طاعة أبى الخطاب يذكر أن الأئمة آلهة ، وأن أبا الخطاب إله ، ويذكر « ولد الحسين أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب » — ويذكر أنهم تأولوا فى ذلك قول الله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وهذا آدم ونحن — أى الخطابية أولاده — وأخيرا إن الخطابية عبدوا أبا الخطاب ، وزعموا أنه إله وزعموا أيضاً أن جعفراً إلههم أيضاً ، إلا أن أبا الخطاب أعظم منه وأعظم من على (٣). ويذكر أقدم مؤرخ شيعى — وهو أبو خلف القمى أن أبا الخطاب ادعى أنه جعفر بن محمد وأنه يتصور فى أى صورة شاء. وذكر بعض الخطابية أن رجلا سأل جعفراً عن مسألة وهو بالمدينة . فأجابه فيها . ثم انصرف إلى الكوفة . وسأل أبا الخطاب عنها . فقال له : أو لم تسألنى عن هذه المسألة بالمدينة فأجبتك فيها (٤) .

أين الحق فى كل هذا ؟ فالأئمة أولا أنبياء ثم آلهة وأبو الخطاب حجة وقيم ، ثم نبى ، ثم إله . والأئمة أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب .

إن هذا التناقض فيما نقل إلينا من أخبار متعارضة عن أبى الخطاب الأسدى يجعلنى أشك تمام الشك فيما أحيط بالرجل من أساطير غالية ، تكاد تجمع عليها مصادر السنة والشيعة الإمامية معاً وتجعلنى أرجح أن ثمة خلافا كبيراً بين أبى الخطاب نفسه وبين الخطابية من بعده . ونستطيع أن نتبين طريقنا خلال شواهد ثلاثة تركها لنا التاريخ فيما ترك من أخبار .

أما الشاهد الأول : فهو أبو خلف القمى — المؤرخ والمتكلم الشيعى القديم . فبينما يذهب فى نص من النصوص إلى أن أبا الخطاب كان يدعى « أن جعفراً الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده ، وعلمه اسم الله الأعظم ، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى الرسالة ، ثم ادعى أنه من الملائكة ، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم » يذهب فى نصوص أخرى إلى أن الرجل قد نهى عن كل هذا . فهو يشرح لنا قصة معمر بن خيثم أحد الغلاة والمنتسبين إلى الخطابية . فيقول : إن هذه الفرقة جعلت جعفر ابن محمد إلهاً بمعنى أن نور الله نور يدخل فى أبدان الأوصياء فيحل فيها ، فكان ذلك النور فى جعفر ،

---

(١) البغدادى : الفرق ص ٥١ .
(٢) الأشعرى : مقالات : ج ١ ص ٦ .
(٣) الشهرستانى : الفرق ج ١ ص ٣٠٠ / ٣٠١ .
(٤) أبو خلف القمى : المقالات ص ٥١ .

ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب ، فصار جعفر من الملائكة ثم خرج من أبى الخطاب ، فدخل فى معمر وصار أبو الخطاب من الملائكة (١) . ثم خرج أحد أتباع معمر ويدعى بابن اللبان يدعو إليه «وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها ما حل منهاوما حرم ، وليس عنده شيء محرم وقال : لم يخلق الله هذا إلا لخلقه ، فكيف يكون محرما ، وأحل الزنا والسرقة وشرب الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات والأخوات ونكاح الرجال ، ووضع عن أصحابه الجنابة وقال :كيف أغتسل من نطفة خلقت منها ، وزعم أن كل شيء أحله الله فى القرآن وحرمه فإنما هو أسماء رجال» (٢) هذه هى آراء تلك الفرقة المعمرية ، عقائدها وعباداتها وطقوسها الوثنية الغنوصية . ومن العجب أن أبا خلف القمى يذكر أن من أنكر على معمر عقائده وتبرأ منه ولعنه هماجعفر الصادق وأبو الخطاب الأسدى فيقول «وخاصمه قوم من الشيعة وقالوا لهم. إن الذين زعمتم أنهما صارا من الملائكة قد برئا من معمر وبزيغ وشهدا عليهما كافران شيطانان وقد لعناهما، فقالوا إن الذين ترونهما جعفراً وأبا الخطاب شيطانان تمثلا فى صورة جعفر وأبى الخطاب يصدان الناس عن الحق، وجعفر وأبو الخطاب ملكان عظيمان عند الإله الأعظم إله السماء ومعمر إله الأرض ، وهو مطلع لإله السماء يعرف فضائله وقدره (٣) . ويتبين واضحاً من هذا النص أن أبا الخطاب الأسدى نهى كما نهى جعفر عن دعوى معمر وبزيغ الغالية ، وأن أبا الخطاب تبرأ كما تبرأ جعفر من كل من معمر وبزيغ وقد دعا هذا إلى اعتبار جعفر الصادق وأبا الخطاب شيطانين متمثلين فى صور بشرية .

وأما الشاهد الثانى : فهو قصة القتال الذى حدث بين أتباع أبى الخطاب الأسدى وبين عيسى بن موسى أمير الكوفة من قبل أبى جعفر المنصور. فقد بلغ هذا الأمير أن الخطابية أتباع أبى الخطاب مجتمعون فى المسجد يدعون إلى أبى الخطاب فبعث إليهم ، فحاربوه وامتنعوا عليه ، وكانوا سبعين رجلا فقتلهم رجال عيسى بن موسى جميعا ، ولم ينج منهم إلا رجل واحد أصابته جراحات فعد فى القتلى فتخلص وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبى خديجة ، وسالم بن مكرم كان من رجال الحديث الشيعى ووثقه النجاشى فى رجاله .

ويذكر المؤرخون أن أبا الخطاب وأصحابه حاربوا رجال عيسى بن موسى حربا عنيفة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين ، لأنهم جعلوا القصب مكان الرماح . وقد كان من أبى الخطاب أن قال لهم «قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم

---

(١) أبو خلف القمى : المقالات ص ٥٣ وانظر أيضا النوبختى : فرق ٤٢ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٣ ؛ والنوبختى : فرق ص ٤٤ .

(٣) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٣ ؛ والنوبختى : ص ٤٢ .

لا تضركم ولا تحل فيكم ، وأخذ يقدم منهم عشرة عشرة للمحاربة ، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا له : ما ترى ما يحل بنا من القوم . وما نرى قصبنا يعمل فيهم ولا يؤثر . وقد عمل سلاحهم فينا وقتل من ترى منا ؟ فقال لهم : «إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي» ثم قال : يا قوم قد بليتم وامتحنتم وأذن في قتلكم ، فقاتلوا على دينكم وأحسابكم ولا تعطوا بلدتكم فتذلوا ، مع أنكم لا تتخلصون من القتل فموتوا كراما» فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وأسر أبو الخطاب وقتله عيسى بن موسى مع مجموعة من أصحابه ، ثم صلبه وأحرقه [1] .

ويبدو واضحاً من هذه الصورة التي ذكرناها أن الرجل لم يدع ألوهية أو نبوة ، وإنما كان يغلو في حب آل البيت وأنه حاول محاولة المختار بن أبي عبيد من قبل أو هو صورة منه . اتصل بالإمام الشيعي جعفر الصادق . كما اتصل المختار بمحمد بن الحنفية ، وحاول السيطرة على الكوفة كما حاول المختار . ولكن المختار كان أكثر فاعلية وقوة ، ثم نادى – كما نسب إلى المختار – بالبداء – بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن البداء ظهر على يديه ، وأنه هو أول من بشر به . ثم نلحظ أيضاً أنه كان من أتباعه سالم بن مكرم وهو محدث مشهور وأحد رجال جعفر الصادق ، بل إن جعفراً الصادق هو الذي كناه أبا سلمة ، مستبدلا بها كنيته القديمة ، أبا خديجة ، ولقد بقي أبو سلمة سالم بن مكرم مع أبي الخطاب في قتاله الأخير حتى النهاية .

أما الشاهد الثالث : فهو أن جميع كتب الفرق بلا استثناء تنسب المذهب إلى أصحابه ولا تطلق على لسان أبي الخطاب إلا القليل . أما تبرؤ جعفر منه ، فقد كانت هذه هي خطة جعفر الصادق ، وهي إعلان التبرى من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه ، وقد فعل هذا مع زرارة بن أعين كما رأينا من قبل – ولعل جعفراً قد مثل مع أبي الخطاب قصة محمد بن الحنفية مع المختار ، فمحمد بن الحنفية تبرأ – فيما يقال – من المختار . ولو ظاهرياً مع أن المختار كان من أخلص رجاله . وكذلك فعل جعفر مع أبي الخطاب . ويؤيد هذا ما يذكره الخطابية – بعد مقتل أبي الخطاب في تأويل الآية «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها . . .» أن السفينة أبو الخطاب ، وأن المساكين أصحابه ، وأن الملك الذي وراءهم هو عيسى بن موسى العباسي قاتل أبي الخطاب . وأن جعفرا الصادق أراد أن يعيبهم بلعنهم في الظاهر وفي الباطن يعني أضدادهم ومن خالفهم [2] . وكما نسبت إلى المختار الآراء الكيسانية نسبت إلى الخطاب الآراء الخطابية من بعده . غير أنه يبدو أن ثمة خلافاً حقيقياً قد حدث بين أبي الخطاب الأسدي وبين الإمام جعفر

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٥ .

الصادق ، وهو أن أباالخطاب كان من محبي إسماعيل بن الإمام جعفر ، وكان جعفر الصادق يكره صلات ابنه–كما سنرى بعد–بالغلاة مما يجعله يفكر فى عزله عن إمامة الشيعة بعده وقد قتل أبو الخطاب فى نفس السنة التى توفى فيها إسماعيل وحدث الانقسام وسرعان ما انضم الخطابية–منفذين لسياسة زعيمهم – لمحمد بن إسماعيل ونرى أن الإسماعيلية أطلقت أول ما أطلقت على الخطابية . يقول النوبختى « وأما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية أصحاب أبى الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة فى فرقة محمد بن إسماعيل وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه » (١) . وقد لاحظنا من قبل أن أبا الخطاب الأسدى تكنى بأبى إسماعيل ، واضعا بذلك أسس فكرة الأبوة الروحية والتبنى الروحى ، مما كان له أثر فى عقائد الإسماعيلية – فيما بعد – علاوة على أنه ينسب إليه فكرة الناطق وفكرة الإمام الصامت .

ولقد كان لأبى الخطاب الأسدى المقام الكبير فى تاريخ الشيعة – غلاة وإسماعيلية – ولقد وضع كما قلنا من قبل فى موازاة « سلمان الفارسى » ولما كان سلمان « من أهل البيت » ، كان أبو الخطاب « مولى بنى هاشم » . كما اعتبر سلمان ممثلا لدور السين – كذلك اعتبر أبو الخطاب ممثلا له . يقول ماسينيون : « وهذا الدور العالى دور السين ، أى دور النقيب الموحى إليه ، هو الذى ادعاه أبو الخطاب – وكان لقبه فى البدء مولى بنى هاشم فى سنة ١٣٨ هجرية بالكوفة قائلا : إن الإمام جعفراً اعترف له به – متخذاً صيغة أخرى مدشنة له – غنوصية زعم أن محمداً استخدمها متحدثاً عن سلمان . وقد أنكر الخطابية أن يكون آل على قد قدر لهم قدراً سابقاً أن يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله . وقالوا إن الاختيار الإلهى بالتبنى الروحى هو وحده المعتبر . وعلى هذا لقبوا سلمان لا بلقب محمدى وإنما بلقب–ابن الإسلام ، كما لقبوا خليفته أبا الخطاب بلقب–أبى إسماعيل » (٢) وقد حاول ماسينيون جهده أن يثبت الموازاة بين سلمان وبين أبى الخطاب . يرى ماسينيون أن الإمامية – وهم بصدد تأمل رسالة سلمان الفارسى – إفترضوا صحة القول بأن روح التأويل التى تفتح لنا معانى الكتاب تمتاز سموًّا وعلوًّا من الروح – جبريل – التى نزلت على محمد ﷺ . إنها أعلى وأسمى لأنها روح الأمر المذكورة فى القرآن ، وحددوا روح الأمر بأنها هى نوع من الفيض الإلهى يحقق تدريجيًّا مقاصد الله الخفية . ورأت الإمامية أن سلمان إحدى وسائل روح الأمر وإحدى عللها الإلهية لدى الرسول على معاً .

هذه الروح تنفذ الأمور الإلهية ، وتفسر قواعد هذه الأمور الثابتة كهؤلاء الذين تختارهم وسائل لها .

---

(١) أبو خلف القم : كتاب المقالات ص ٨١ ؛ والنوبختى فرق ص ٦٩ .

(٢) ماسينيون : سلمان الفارس والبواكير الروحية للإسلام فى إيران فى كتاب « شخصيات قلقة فى الإسلام » ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٩ .

وبينما نجد استعمال التنزيل لا يسمح ولا يعني سوى مكافحة أحد غير الملاحدة والمشركين ، نجد روح التأويل تسمح بتمييز نفاق المنافقين وأسرار الأفئدة ولعل ماسينيون يشير بأسلوبه الشعرى الخيالى إلى تلك الفكرة الإمامية التى استندت على قول عمار بن ياسر فى صفين « اليوم نقاتلكم على تأويله كما قاتلناكم من قبل على تنزيله » أو على الأثر المشهور « إننا كنا نتعرف على المنافقين على رسول الله ببغضهم لعلى ». وأياً ما كان الأمر فإن ماسينيون يذكر أن الإمامية ترى أن روح الأمر – روح التأويل – تتجسد فى كل جيل فى ممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله وأولئك الذين يتعرفون بالإمام الشرعى ومن ينكرونه دورة بعد دورة وأن هذه النظرية القائلة بدوام التصميم التاريخى وبالعود الدورى للنماذج الكتابية الدينية قد ظهرت سنة ٣٣هـ . حينما أعلن صعصعة بن صوحان أن الإمام – وقد كان فى البدء آدم – يجب أن يتعرف آنئذ فى على « ثم أتى المغيرة من الغلاة قبل عام ١٠٠هـ وأعلن أن المنكر الأول فى حياة على هو عمر ، وهو يوازى إبليس الأول المنكر فى حياة آدم وقد أنكر إبليس الثانى – أو المنكر الأول على على – ميثاق على ، ميثاق الله ، ثم تابعه أبو بكر المنكر الثانى ، ثم عثمان المنكر الثالث وهو يضع عمر أول المنكرين ، لشدة عداوته لعلى وفاطمة .

أما روح الأمر ، وأول المؤمنين فقد كان فى حياة على هو سلمان – كما ترى الإسماعيلية فيما بعد – ويرى ماسينيون أنه « منذ بداية القرن الثانى أدمجت شخصية سلمان التاريخية فى النموذج الإلهى الأعلى الذى تجسدته زمناً والذى سيسمى من بعد باسم سلسل أو بأول حرف منه وهو السين . نعتقد أن أبا الخطاب (المتوفى سنة ١٩٣) هو الذى أدرك فى تلك الفترة رسالة سلمان بكل قوتها. وهو ألا يجعل نفسه روح الأمر مباشرة إنما يوجد بينه وبينها تدريجيًّا بعملية رفع روحى ، وبهذا يرفعه إلى مرتبة الألوهية فوق مرتبة الإمام . وهذا عنده خماس أعنى من خمسة أشخاص – محمد ، على ، فاطمة ، الحسن والحسين – وفى هذا نشاهد خماس المباهلة » يحاول ماسينيون إذن أن يجعل من أبى الخطاب الأسدى – فى عقيدة الشيعة – صورة أخرى من سلمان ذى الصورة الشيعية أيضاً . وأن أبا الخطاب أدرك قبل الإسماعيلية والدروز فكرة العين والميم والسين . العين هى النموذج الأول للإمام – ومثاله آدم فى مسألة السجود وعلى فى غدير خم – وكان صعصعة بن صوحان أول من أعلن أمام معاوية نفسه سنة ٣٣ هـ النظرة الشيعية التى تجعل من إمامة آدم وإمامة على (العين ، الصامت) شيئاً واحداً فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام على الحقيقى فى ذلك الحين ، وينسب ماسينيون فكرة صعصعة إلى أستاذه سلمان الفارسى . العين يتربع فى الوسط ساكناً صامتاً ، مستوراً عتيداً مثل أمر الله « وهو يهيمن على هيئة شخص واحد غالباً ، وأحياناً على هيئة خماس لرئيس القانون الإلهى ، والسين عند غلاة الشيعة هو المعنى الذى يضعه الله فى مركز الجماعة ، والحجاب المستور الذى يكشف

عن حضرة خفية ، وهو الجسد المتوارث للجنس المختار للإمامة ، أهل الاصطفائية بنى الصاد – ولكى يموت المرء مسلماً صحيحاً ، فمن الضرورى الإيمان به ومحبته فى تجليات ظهوره المتقطعة المتواترة هذه التى تبدو بطريقة دور كعودة الهلال عودة العرجون القديم . الذى ينظم وحدة الأعمال الشرعية من صوم وحج . . . إلخ . ويحيا . كما يحيا الهلال بالتلبية والتهليل .

« والميم هو النموذج الأول للنبى – خصوصا محمد ﷺ – متغير وناطق » ينشر بدعوته الأوامر الإلهية ، وهو يعين تشخص العين ويسيمه ، والميم حجاب حاجز يحب اجتيازه ، لأنه يحجب .

والسين – وهو سلمان – هو النموذج الأول للأسباب ، وهى الروابط الخارقة التى بين السماء والأرض ، من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » والسين – سبب الشدو التلقين ، تدعو إلى سبيل الله بالحسنى والإقناع كما أن نداء المؤمن يذكى القلب بالصلاة ، وهو الباب الذى يدخل منه النور الشعشعانى ، أو منه يتصل المؤمن بالحضرة الإلهية ، ويحقق عمل الله ، ينفخ الروح مولداً الأبدان ، ومعلماً للنفوس ، وهو المقدرة التى تمنح الوجود ، وسلسل أو السين يمنح الحكمة ويؤتى البرهان ، ويرى ماسينيون أن اللفظ سلسل قد تكون عن الكلمة سلسلة الواردة فى القرآن فى قوله « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وصيغت فى حروف المذكور كيما يكون حساب الحروف س + ل + س + ل = ١٨٠ = س + ل + م + ن .

ويرى ماسينيون أن من هذا كله تنشأ تصورات ثلاثة مختلفة للروح الإلهى » ويلاحظ أنه على العكس مما تدعيه كتب الفرق السنية ، لم توجد فرقة شيعية مغالية ادعت بأن أحد هذه النماذج الثلاثة يمكن أن يكون الله بجوهره ، فعند جميع الغلاة أن الله لا يمكن معرفته فى ذاته وهو فوق كل وصف وحد ، وإنما الأمر هنا أمر تأليه بالمشاركة ، ونوع هذه المشاركة يختلف وفقاً للنموذج الذى تفضله الفرقة .

حاول ماسينيون أن يثبت أن أبا الخطاب الأسدى قد أدرك هذه النماذج الثلاثة إدراكاً واعياً مطلقاً ، وأنه حاول تحقيقها فى نفسه ، فهو السين كما رأينا . إنه يمثل دور الخضر مع موسى ووصيه ودور آصف مع النبى سليمان . جمع ماسينيون أقوال الإسماعيلية المتأخرين وأقوال الدروز والعلبائية ، وحاول أن يبين أن هذا الاتجاه الغنوصى الخطير كان فى يد سلمان الفارسى وتلميذه صعصعة بن صوحان ، ثم بيد أبى الخطاب الأسدى فيما بعد . كان ماسينيون مصوراً بارعاً يرسم بريشته صورة لسلمان ، مضيفاً عليها ما شاء من أصباغ وألوان ، وضعها المتأخرون من الإسماعيلية والدروز على وجه الرجل الصالح ،

المهاجر من فارس وراء الحقيقية ، والذى أحب على بن أبى طالب ، لأن علياً كان أقرب الناس إلى الرسول .

لقد تناسى ماسينيون صورة أخرى لسلمان ، هى صورته السنية ومحبته لأبى بكر وعمر ، وتوليته المدائن للخليفة الثانى ، تجاهل ماسينيون — عن عمد — كثيراً من الحقائق التاريخية الثابتة عن هذا الصحابى الجليل ، لكى يرسم صورة معينة حدد هو إطارها من قبل ، لا تمت إلى الحقيقة التاريخية الثابتة لسلمان ، ثم حاول أن ينقل هذه الصورة لأبى الخطاب الأسدى ، ومن المؤكد أن كثيراً من الغنوصيات ظهرت فى نظريات أبى الخطاب ، وأنه غلا أشد الغلو فى جعفر الصادق ، غلوًّا يأباه أهل السنة والإمامية معاً ومن المحتمل أن يكون أبو الخطاب قد أعلن أن جعفراً الصادق إله ، وأنه نبى ، ثم إنه من المحتمل أيضاً ألا يكون . ولكن ليس فى كتابات الرجل ما يدل على معرفة بالمفهومات الغنوصية الغنية التى نقلها إلينا ماسينيون عن العين والسين والميم ، من كتابات المتأخرين من الإسماعيلية والدروز كما أن ماسينيون نفسه ينكر على الغلاة القول بألوهية تلك العناصر — ثم يعود فيقول إن السينية عند أبى الخطاب معناها أن س . تصبح ، ملكاً ، ثم إلهاً . ولم يذهب بألوهية السين أى سلمان سوى السلمانية ، ثم الدروز .

ثم إذا كان هذا الثالوث قد تحقق فى عهد محمد ﷺ فكان العين «على» هو النموذج الأول للإمام ، وكان الميم «محمد» هو النموذج الأول للنبى وكان السين «سلمان» هو النموذج الأول للأسباب ، فكيف تحقق هذا الثالوث فى عهد أبى الخطاب . إذا كان جعفراً هو العين وسلمان هو «السين» فأين نجد «الميم» . لقد تصيد ماسينيون — مع الأسف — فكرة عبادة الميم والعين والسين أى فكرة عبادة محمد وعلى وسلمان عند الدروز ووضعها فى قالب ثالوث مسيحى وحاول أن يفرضها على آراء الشيعة الغلاة مبتدئاً بعهد الرسول ، متدرجاً بها فى مختلف العهود . وقد فعل هذا بتصنع شديد وتكلف ظاهر — وهو فى هذا يتأثر بعقيدته الكاثوليكية التى سيطرت على أبحاثه هنا ، كما سيطرت على أبحاثه فى الحلاج . وأياً ما كان الأمر ، فقد أعلنت الشيعة الإمامية ثم خليفتها الاثنا عشرية ، وأعلن أهل السنة والجماعة — وفى هاتين الفرقتين إجماع المسلمين على مدى الدور وهاتان الفرقتان الاثنا عشرية ، وأهل السنة والجماعة ؛ هما الحافظتان لحوزة الإسلام والمنافحتان عن عقائده فى الألوهية والنبوة . أعلنتا البراءة من أبى الخطاب الأسدى وتكفيره وإخراجه من حظيرة الأئمة .

وقتل أبو الخطاب — كما قلنا — ولكن الرجل ترك أتباعاً كثيرين وفرقاً مختلفة اختلفت فيه وزادت . وقد وصف المقريزى هذه الخطابية «بأنهم أتباع أبى الخطاب محمد بن ثور — وقيل محمد بن يزيد الأجدع» وأن مذهبه هو «الغلو فى جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضاً من المشبهة وأتباعه خمسون

فرقة» وهذه مغالاة من المقريزى أو خطأ نسخى فإن عدد فرقه خمس . ثم يرى المقريزى أنهم كلهم متفقون على أن الأئمة – كعلى وأولاده – أنبياء ، وأنه لابد لكل أمة من رسولين أحدهما ناطق والآخر صامت ، فكان محمد ﷺ الرسول الناطق وعلى الرسول الصامت . ثم إنه يجمعهم جميعاً أن جعفراً الصادق كان نبيًّا ، ثم انتقلت النبوة إلى أبى الخطاب ، وأن هؤلاء الأنبياء أى الأئمة – عالمون بما هو كائن إلى يوم القيامة . ويزعم هؤلاء جميعاً أن جعفراً الصادق قد أودعهم جلداً – وهو الجفر . فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب ، وفيه تفسير القرآن ومن الأمثلة التى قدموها للناس من هذا التفسير الجفرى . قول الله «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» أن البقرة هى عائشة ، وأن الخمر والميسر الواردين فى القرآن هما أبو بكر وعمر ، والجبت والطاغوت هما معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص (١) .

أما الأشعرى فقد اعتبرهم خمس فرق . أما الفرقة الأولى : فهى المعمرية ، (أتباع معمر بن خيثم) وأهم آرائهم : أن الدنيا لا تفنى – أى أنها أزلية سرمدية – وأن الجنة هى ما يصيب الناس من خيرات فى هذه الدنيا ، وأن النار هى ما يصيبهم من بلاء . ثم آمنوا بفكرة التناسخ وأداهم هذا إلى القول بأنهم خالدون لا يموتون ، ولكن ترفع أبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم . ثم استحلوا سائر المحرمات من خمر وزناً ، كما دانوا بترك الصلاة (٢) وهذا هو المذهب السائد الذى ينسب دائماً إلى الغلاة ، مزيج من غنوصية مانوية ، ومسيحية ؛ فالتناسخ غنوصى والرفع مسيحى . وقد ذكرنا من قبل أن المعمرية تذهب إلى أن الله نور دخل فى أبدان الأوصياء ، دخل فى جعفر ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب ، وصار جعفر من الملائكة ، ثم خرج من أبى الخطاب ودخل فى معمر هذه رواية يذكرها النوبختى ثم يضيف النوبختى رواية أخرى : وهى أن النور الذى هو الله دخل فى عبد المطلب ثم انتقل إلى أبى طالب ثم انتقل إلى محمد ، ثم انتقل إلى على ، ثم تناسخ فى الأئمة حتى انتقل إلى معمر . ورواية ثالثة : أن النور دخل فى أبى طالب – فهو إله ، ثم سكن فى محمد ﷺ وكان محمد هو الله الحق ، وكان على بن أبى طالب رسولاً ، فلما مضى محمد خرجت منه الروح ، فلم تزل تتناسخ فى واحد بعد واحد حتى صارت فى معمر . ورواية رابعة تذهب إلى المعمرية تقول : إن قوالب هذه الروح لا تموت ولا تفنى ، ولكنها تتحول إلى ملائكة وأنهم يرفعون إلى السماء ولا يموتون . يرفعون بأبدانهم وأرواحهم (٣) . هذه النقول المتعارضة تجعلنا نشك فى كل ما تتضمنه ، وإنما من الأوفق أن نقول : إن معمراً كان غنوصيًّا بلا شك ، آمن بنظرية النور المحمدى وانتقالها من نبى إلى نبى ، ثم نقلها إلى حجج الإمام أو دعاته ، كما آمن بالتناسخ (٤) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ .
(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١١ .
(٣) القمى : المقالات ص ٥٤ .
(٤) الدكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة ص ٣١ .

ويرى ماسينيون أن المعمرية سبئية قالت بإله ونبي وإمام والإمام (سبعة أسباب : خماس المباهلة أو أصحاب الكساء المشهورين على وفاطمة والحسن والحسين وسلمان + ٢ أبو طالب وعبد الله) [١] ولكن عبد الله والد الرسول ﷺ ، لم يذكر إطلاقاً ، فهل يقصد ماسينيون عبد المطلب . ولعله أراد بهذا أن يجعل المعمرية أو اليعمرية – كما تدعى أحياناً – سلفاً للإسماعيلية ، ثم يتكرر هذا السباع فى كل دورة وزمان . وهل يكون المذهب هو هذا كما قلت من قبل : النور المحمدى ، يتجلى فى دورة دورة من دورات الأئمة ، على شكل سباع . إن النصوص لا تقدم إلى المذهب واضحاً . أما صلة هذه الفرقة بأبى الخطاب ، فقد قلنا – من قبل – إن أبا الخطاب قد تبرأ منها ، كما تبرأ جعفر ، وشهدا على معمر بأنه كاذب وشيطان .

وننتقل إلى فرقة أخرى (من تلامذة أبى الخطاب) : هى البزيغية أصحاب بزيغ بن موسى . ويذهبون أيضاً إلى أن جعفراً إله ، ولكنه ليس هو الظاهر المرئى ، وإنما تشبه للناس بهذه الصورة . وهذا يعنى أيضاً فى لغة محايدة أنه يرى أن النور الإلهى قد حل فيه . وأن جعفراً بعث أبا الخطاب بالرسالة ، ثم بعث بزيغا ، فأبو الخطاب وبزيغ نبيان . بل ينقل الأشعرى أن البزيغية تقول : «إن كل مؤمن يوحى إليه» واستندوا فى هذا إلى تأويل الآيات «وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله» أى بوحى من الله . والآية «وأوحى ربك إلى النحل» والآية «وإذا أوحيت إلى الحواريين» ويبدو واضحاً أننا أمام تفسير غنوصى للقرآن ، ونحن نعلم أن «الغنوص» هو إلقاء المعرفة اللدنية فى النفس وأن دائرته مفتوحة لمن أراد من البشر أن يسلك طريقه . فهذا إذن نداء غنوصى واضح فى العالم الإسلامى . وقد أداهم القول بالغنوص إلى أنهم أعلنوا أن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد ، وأنهم خالدون ، وأن أحدهم إذا بلغت عبادته مبلغها الأكمل ، رفع إلى الملكوت ، وادعوا معاينة أمواتهم وأنهم يرونهم بكرة وعشيًّا [٢] . وكل هذه أصول غنوصية ، نفذ الكثير منها بعد إلى التصوف الفلسفى ، وكانت الكوفة فعلاً بيئة سبخة لكل هذا . وقد تبرأ جعفر الصادق ، كما تبرأ أبو الخطاب من بزيغ [٣] .

وأما الفرقة الثالثة : فهى العميرية أصحاب عمرو بن بيان العجلى ، ويبدو أن هؤلاء كانوا تلامذة أمناء لأبى الخطاب الأسدى ، لقد أنكرت هذه الفرقة التناسخ ، كما أنكرت الخلود فى هذه الدنيا ، ولكنهم – ولعلها زيادة من مؤرخى السنة – قالوا بنبوة الأئمة ثم عبدوا جعفراً . وأنهم نصبوا خيمة فى

---

(١) النوبختى : فرق . . ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٢ ؛ والشهرستانى : ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) النوبختى : فرق . . . ص ٤٣ ، ٤٤ .

كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر ، وقد نمى خبرهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، فأخذا عميراً ، فصلبه فى كناسة الكوفة عام ١٢٨ هـ. وسجن بعض أصحابه وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالعجلية (١) .

وأما الفرقة الرابعة : فهى «فرقة السرى» ومن العجيب أن فهرس فرق الشيعة يدعوه بالسرى بن منصور ويجعل وفاته عام ٢٠٠ هـ فى عهد المأمون وأنه قتل بيد الحسن بن سهل بينما يذكر أصحاب الطبقات كمنهج المقال ومنتهى المقال أن الإمام جعفراً الصادق قد لعنه فيمن لعن من الغلاة وأن الصادق قال : إن بناناً والسرى وبزيغا لعنهم الله تراءى لهم الشيطان فى أحسن ما يكون صورة آدمى من قرنه إلى سرته (٢) .

أما آراء هذه الفرقة فهى . . أن السرى رسول مثل أبى الخطاب ، أرسله جعفر وقال : إنه قوى أمين ، فهو موسى القوى الأمين ، إشارة إلى الآية القرآنية ، «إن خير من استأجرت القوى الأمين» ، «وهو فيه تلك الروح» . ثم إن جعفراً هو الإسلام ، والإسلام هو السلام ، وهو الله ، ونحن بنو الإسلام ، أى بنو الله ، كما قالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه وكما قال رسول الله : سلمان ابن الإسلام وقد قام أتباع السرى بالصيام والصلاة والحج لجعفر ، وكانوا يلبون له مرددين «لبيك يا جعفر لبيك» (٣) . وهذه التلبية والتهليل لدليل على أن غلو السرى لم يصل إلى حد نسبة الألوهية إلى جعفر ، بل إنه يدل فقط على أنهم آمنوا به كإمام غنوصى يتلقى من الله الأمر ، وهو هنا عودة الملال ، أو عودة العرجون ، هذه فكرة غنوصية لا شك تجعل منه آدم أو تجلى آدم الأول فيه .

أما الفرقة الخامسة : فهى المفضلية أتباع المفضل بن عمر الجعفى (المتوفى سنة ١٧٠ تقريباً) وكان صيرفيًّا فى الكوفة . وقد آمن فيما يرى الأشعرى – بألوهية جعفر الصادق (٤) . وقد تولى ابنه محمد بن المفضل الدعوة من بعده . وقد كان للاثنين فى تاريخ الغلاة مقام كبير ، بحيث اعتبرا فيما بعد «الباب» ويذكر الشاعر الغالى أبو الغمر الثمالى الديكى (١٩٠ هـ) – رامزاً لهما :

أنا أبصرت ديك العرش فى صورة أنسى أنا أبصرت ربى قاعداً فى حى جعفى

وعند ماسينيون أن الباب – السين – ديك العرش أى المؤذن ، لأنه أول من سلم على الإمام بالتهليل «أنت أنت» (٥)

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢١ ، والشهرستانى ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٣ .

(٥) الدكتور بدوى : شخصيات قلقة ص ٤١ .

كانت الخطابية إذن حركة ضخمة سياسية وعقائدية ، ويبدو لى أنها بدأت بعقيدة بسيطة غالية فى حب الإمام ، وقد حدث هذا على يد أبى الخطاب ، ثم بدأ الغلو يفشو فيها ويفشو ، ويدخل الغنوص شيئاً فشيئاً ، حتى امتلكها امتلاكاً كاملاً ، ولم يجد الداعية أبو الخطاب وسيلة للسيطرة عليها فسار معها ، وكره منه جعفر هذا فتبرأ منه ، كما تبرأ هو من غلاة فرقته ، وحين قتل انضم بعض أتباعه لمعاصره الحسين بن أبى منصور ودخلوا فى طائفة الخناقين ، وانضم الأتباع الآخرون للإسماعيلية ، بل هناك – كما رأينا – من يذهب إلى أن أبا الخطاب مؤسس الإسماعيلية الحقيقية وأنه دعى بأبى إسماعيل . وسنبحث هذا فى الفصل الخاص بالإسماعيلية ، وقد بقى أبو الخطاب يشغل الأجيال من بعده ، وعاشت ذكراه لدى الغلاة حتى وقت متأخر .

لقد تفرق أتباعه فيما يقول ابن الأثير – وتعلموا الشعبذة والنيرنجات والنجوم والكيمياء ، وأنهم يحتالون على كل قوم « بما يتفق عليهم » أى ينشرون دعوتهم ويدخلونها على الناس بما يتفق مع ميل كل واحد ممن يقابلونه – ثم أظهروا الزهد للعوام [1] . وكأن ابن الأثير يريد أن يربط الغلو بالزهد ثم بالتصوف .

وأخيراً يلاحظ الدكتور الشيبى ببراعة أن « حركة أبى الخطاب لم تمت بهذه السهولة ، وإنما وجدنا محمد بن عبد الله بن مهران يكتب فى القرن الثالث كتاب مناقب أبى الخطاب ووجدنا كتاباً فى الرد على الخطابية بقلم رجل من أنصار الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة « ٢٦٠ » وهذا يدل على أن الحركة الخطابية بقى لها أنصارها حتى النصف الثانى من القرن الثالث .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢١ .

الفصل الثانى

ظهور الفرق الميمية والعينية والسينية

بدأ الغلو كما رأينا بقداسة أسبغت على الإمام على بن أبى طالب . وحيكت الأسطورة حول هذا الغلو ، ونسبت إلى شخصية يهودية هى شخصية عبد الله بن سبأ ، وأصبح دعاء السبئية وتهليلهم «أنت أنت» . «أنت الخالق البارى» عنواناً على كل حركة غالية (١) . وسواء – كما قلت من قبل – صح وجود عبد الله بن سبأ أو لم يصح ، فقد وجد الغلو – قاسياً وعنيفاً – فى قلب المذهب الشيعى ، وقدم لهذا المذهب أضراراً كبرى فى أرجاء العالم الإسلامى . بل إن حركة المختار بن عبيد ، وهى حركة من أجل الحركات فى تاريخ الإسلام ، قد شوهت أشد التشويه حين نسب إليها الزبيرية والأموية الغلو ، واعتبروها حركة خارجة على الإسلام ، ومزج بينها وبين الكيسانية ، وقد حاول ماسينيون أن يعتبر الكيسانية أو المختارية فرقة عينية تقول بنوع من الألوهية لابن الحنفية ولوكيله المختار ثم للسادن : حوشب البرسمى (٢) .

وقد قدمنا للقارئ صوراً من هذا الغلو وأصحابه ، وسنقدم للقارئ فى هذا الفصل صوراً أخرى غريبة ، كانت أصولها أيضاً فى هذا الغلو الذى قدمنا صوره من قبل : بل زادت فى الغلو . ويبدأ هذا الغلو بإسباغ الألوهية على النبى محمد ﷺ ؛ بمعنى أن روح القدس كانت فى النبى ﷺ ، ثم فى على وأولاده حتى الإمام الثانى عشر . لعل هذه هى الفرقة الميمية الأولى ، وقد وجدت أصولها فى السبئية القديمة . ويعلق الأشعرى عليها بأنها ذهبت إلى ألوهية «كل واحد من هؤلاء» أى النبى ﷺ والأئمة الاثنى عشر «كل واحد منهم إله عن التناسخ ، والإله عندهم يدخل فى الهياكل (٣) . ويقصد بهذا أن روح القدس تحل وتتناسخ فى الأجسام . ولم يتنبه ماسينيون إلى هذه الفرقة العينية الاثنى عشرية الغالية فى عرضه الفرق الميمية . ومن المؤكد أن المقصود بالألوهية هنا حلول الكلمة فى النبى محمد ، ثم انتقالها فى الأئمة . فالنصوص المسيحى واضح هنا تمام الوضوح . مع نزعة صابئية حرنانية تتضح فى قول هذه الفرقة بأن الإله يدخل فى الهياكل .

---

(١) الملطى : التنبيه ص ٢٥ .

(٢) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٠ – ٤٢ ؛ والطبرى : تاريخ ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٣) الأشعرى : مقالات : ج ص ١٤ .

ويمكن أن يدرج فى اتجاه هذه الفرقة الكاملية أو الكميلية . وقد نسبت هذه الفرقة إلى كميل بن زياد صاحب الإمام على ، ونسب إليه أنه يقول «بأن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص ، وذلك النور فى شخص يكون نبوة ، وفى شخص يكون إمامة وربما تتناسخ الإمامة فتكون نبوة» . وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت [١] . وقد كان بشار بن برد الشاعر من أتباع هذه الفرقة الأخيرة ، وهذه الفرقة وإن كانت لا تقول بألوهية اثنى عشر إلا أنها تقول بحلول نور فى النبى ، ومنه إلى الأئمة . وقد نتساءل هل كان كميل بن زياد (المقتول عام ٨٣) بيد الحجاج والذى وثقه ابن سعد وابن معين [٢] ، ممن ذهبوا إلى القول بالتناسخ فى هذا الوقت المبكر . أم أنه كان هناك كميل بن زياد آخر ومتأخر .

وأضع أيضاً تحت هذه الفرقة (المفوضة) وهى تقول إن الله خلق محمداً ﷺ ، ووكل الأمور وفوضها إليه فخلق الدنيا دون الله تعالى ، ثم فوض محمد ﷺ تدبير العالم إلى على بن أبى طالب – فهو المدبر الثانى بعد محمد ولا ينسبون الحسن والحسين إلى على ، لأن الإله لا يكون له ولد ولا والد . وكانوا يسمون محمداً وموسى الخائنين لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعليًّا أرسل محمداً ، فخاناهما . ويزعمون أن عليًّا أمهل محمداً عدة سنين ، مدة أصحاب الكهف . فإذا انقضت هذه المدة ، وهى ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة .

ويقولون إن الملائكة ، كل من ملك نفسه ، وعرف الحق ، وأن الجنة معرفة الإمام وانتحال مذهبه ، والنار الجهل به والعدول عن مذهبه .

أما فخر الدين الرازى فيقول فى كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٥٩) : أن المفوضة هم الذين يقولون إن الله خلق روح على وأرواح أولاده ، وفوض العالم إليهم ، فخلقوا هم الأرضين والسماوات ، وقالوا من هنا قلنا فى الركوع سبحان ربى العظيم وفى السجود سبحان ربى الأعلى . فالإله الأعلى هو على وأولاده ، والإله الأعظم هو الذى فوض إليهم العالم .

ويقابل هذه الفرقة الميمية الغالية الاثنى عشرية فرقة عينية وتنسب إلى العلياء بن ذراع الدوسى أو الأسدى ، وهذه الفرقة تؤمن بأن «روح الإله» قد حلت فى على وأنه بعث محمداً رسولاً ، فدعا إلى نفسه ، وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالذمية لأنها تذم الرسول محمداً ﷺ . وأضع تحت هذه الفرقة أيضاً الغرابية أتباع ابن جمهور الغرابى الذى ادعى أن جبريل أخطأ وأزاغ الرسالة من على إلى محمد

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٤٥ .

ﷺ [١] . ويرى الشهرستانى أن من يقدمون عليًّا فى أحكام الإلهية يسمون العينية ، ومن يقدمون محمداً ﷺ يسمون الميمية .

غير أن هناك تفسيراً آخر لهذه الفرقة العلياثية أو العلياوية أورده ماسينيون عن الكشى وغيره عن مقالة بشار (أى بشار الشعيرى المتوفى حوالى سنة ١٨٠ هـ) هى مقالة العلياوية . يقولون إن عليًّا عليه السلام رب وظهر بالعلوية الهاشمية ، وأظهر به عبده ورسوله بالمحمدية . ووافق أصحاب أبى الخطاب فى أربعة أشخاص : على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وأن معنى الأشخاص الثلاثة : فاطمة والحسن والحسين تلبيس ، وفى الحقيقة شخص على ، لأنه أول هذه الأشخاص فى الإمامة والكثرة ، وأنكروا شخص محمد عليه السلام ، وزعموا أن محمداً عبد وعليا رب . وأقاموا محمداً مقام سلمان عند الخمسة . وجعلوه – أى سلمان – رسولاً لمحمد صلوات الله عليه . فوافقهم أى بشار فى الإباحات والتعطيل والتناسخ . والعلياوية سمتها الخمسة علياثية وزعموا أن بشاراً الشعيرى لما أنكر ربوبية محمد وجعلها فى على وجعل محمداً عبد على وأنكر [٢] رسالة سلمان – مسخ فى صورة طير يقال له عليا ، يكون فى البحر فلذلك سموهم العلياثية .

ويتصل بهاتين الفرقتين « السينية » وهم القائلون بإلهية سلمان الفارسى [٣] . ويرى أبو خلف القمى أنهم غلاة أظهروا التشيع واستبطنوا المجوسية ، وأنهم زعموا أن سلمان هو الرب ، وأن محمداً داع إليه ، وأن سلمان لم يزل يظهر نفسه لأهل كل دين [٤] . ويقول أبو حاتم الرازى : إن السلمانية ، وهم الذين قالوا بنبوة سلمان الفارسى وتغالى قوم منهم فأعلنوا ألوهيته . أما الذين يؤمنون بنبوته فيؤولون قول الله عز وجل « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » قالوا : إنما هو سلمان « أرسلنا قبلك من رسلنا » وإنما كانت الكتابة فى المصحف . الميم ملصقة بالنون بلا ألف وهو سلمان كما كتبوا لقمن وعثمن بلا ألف . وغلا فيه قوم حتى فضلوه على أمير المؤمنين – على – « صلوات الله عليه [٥] » . فسلمان هنا أحد الأنبياء القرآنيين ، وسيأتى الإسماعيلية ويقولون : إنه حامل القرآن . وسنرى ما يشبهه عند محمد بن على الشلمغانى الكاتب المعروف بابن أبى العزاقر وصاحب فرقة العزاقرية . (قتل حرقاً عام ٣٢٢ هـ) وهو شخصية هامة لم تدرس بعد ، وله كتب متعددة منها كتاب فى المباهلة وكتاب فى الحسن السادس

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٩٣ ؛ والبغدادى : الفرق ص ١٥٢ ؛ والملطى : التنبيه ص ٢٩ ؛ والرازى : اعتقادات ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ماسينيون : شخصيات ص ٤١ .

(٣) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٣١ .

(٤) أبو خلف القمى : المقالات ص ٦١ ، ٦٢ .

(٥) نقل الأستاذ ماسينيون النص عن أبى حاتم الرازى – فى شخصيات قلقة ص ٤٥ .

ويذكر ابن الأثير أنه أحدث مذهباً غالياً فى التشيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه . ويبدو أنه ادعى لنفسه مقام سلمان وهو يساوى عنده ميكائيل وقد تسمى بالباب ، أى ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر وقد ذكر أنه أعلن أنه إله الآلهة بحق الحق ، وأنه الأول القديم الظاهر الباطن الرازق التام الموماً إليه بكل شىء .

ويبدو أنه ادعى فقط حلول الإلهية فيه وأن الله يحل فى كل شىء على قدر ما يحتمل . وأنه خلق الضد ليدل على المضدود . فمن ذلك أنه حل فى آدم لما خلقه ، وفى إبليس أيضاً . وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه فى معناه . ويرى الشلمغانى أن الدليل على الحق أفضل من الحق وأن الضد أقرب إلى الشىء من شبيهه . وأن الله إذا حل فى جسد ناسوتى ظهر من القيدة والمعجزة ما يدل على أنه هو — أى الله ، وأنه لما غاب آدم ظهرت اللاهوتية فى خمسة ناسوتية كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر . وفى خمسة أبالسة أضداد لتلك الخمسة ثم اجتمعت اللاهوتية فى إدريس وإبليس وتفرقت بعدهما كما تفرقت بعد آدم . . . إلى أن انتهت إلى على بن أبى طالب فاجتمعت فيه اللاهوتية وفى إبليس . ثم إن الله يظهر فى كل شىء . وكل معنى وأنه فى كل أحد بالخاطر الذى يخطر فى قلبه فيتصور له ما يغيب عنه حتى كأنه يشاهده وأن الله اسم لمعنى . وأن من احتاج الناس إليه فهو إله . ولهذا المعنى يستوجب على كل أحد أن يسمى إلهاً . وأن كل أحد من أشياعه يقول : إنه رب لمن هو دونه فى درجته . وكان الرجل منهم يقول : أنا رب لفلان ولفلان ، وفلان رب ربى حتى ينتهى إلى الشلمغانى فيقول : إنه رب الأرباب ، لا رب غيره ولا ربوبية بعده [1] .

ويذكر المسعودى أنه قتل معه رجل من أتباعه يقال له ابن أبى عون ويعرف بابن المنجم الكاتب [2] .

ونحن قد رأينا من قبل أن هناك من أنكر على سلمان — أى جبرئيل — أمانته وأنه خان ، وأزاغ الرسالة من على إلى محمد ﷺ ولكن ما لبثت أن ظهرت فرقة من أكثر الفرق غلوًّا ، وهى فرقة الخمسة . وهذه الفرقة تستند على حديث الكساء المشهور فى قصة المباهلة بين محمد رسول الله ﷺ ووفد نصارى نجران . فقد أتى وفد من نصارى نجران يسألون الرسول عن اعتقاد الإسلام فى المسيح . وكان الوحى قد نزل يقول «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» ووصل الوفد النجرانى إلى المدينة . وأكرم الرسول وفادته ، وناقش الوفد الرسول ، وأصر كل على رأيه فى المسيح . وهنا نزلت الآية «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل . فنجعل لعنة الله على الكاذبين» وقبل الوفد النجرانى

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٢) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٣٤٣ .

المباهلة وأتى محمد ﷺ برهائن المباهلة وهم فاطمة والحسن والحسين وعلى ثم الرسول نفسه وعلى «الكثيب الأحمر» بجوار المدينة ، فى الموعد الذى اتفق فيه الفريقان على المباهلة ألقى رسول الله ﷺ بكساء أسود على شجرتين صغيرتين وتحت الكساء وفى ظلاله جلس وبجانبه على وأمامه الحسن والحسين وخلفه فاطمة . . . هؤلاء أصحاب الكساء ينتظرون مقدم الوفد النصرانى للمباهلة . وأقبل أسقف نجران والوفد متقدمين نحو أصحاب الكساء . ورآهم محمد ﷺ ، وبدأ يرفع يديه ممدودتين فوق رأسه وظهرت الأضواء الصاعقة ، وتلألأت السماء ، وانحنت الأشجار وبدا الكون ، وكأن صاعقة من السماء تكاد أن تنقض على الأرض . وولى الأسقف ووفد نجران هاربين . . . وأعلنوا تخليهم عن المباهلة .

أما أهل السنة والجماعة ، فقد رأوا فى حادثة الكساء ، معجزة لمحمد ﷺ ، قام بها تنفيذاً للأمر القرآنى الوارد من السماء . ولكن ما لبث الشيعة المعتدلة أن رأوا فيها ركيزة من ركائز عقيدتهم فى الحق الإلهى لعلى وأولاده من بعده فى إمامة المسلمين . واقتن الشيعة فى وصف الكثيب الأحمر ، وعليه أصحاب الكساء ، وهالات الجمال الإلهى تحيط بهم .

وكان لابد أن يتناول الغلاة من الشيعة هذه الحادثة بكل أنواع التفاسير ، ويحيكون حولها الأساطير . ومن هنا تكونت «الخمسة» من غلاة الشيعة .

ويبدو أن الفرقة الخمسة ظهرت فى أصحاب أبى الخطاب . والفرق الخمسة تنقسم إلى ثلاث : ميمية ، وعينية ، وسينية .

وبالرغم من أن ماسينيون يزعم تحت تأثير عقيدته الكاثوليكية – أن أبا الخطاب والخطابية كانوا سينية يؤمنون بالسين – سلمان – المسيحى فى نظره ، فإن أقدم مؤرخ شيعى وهو أبو خلف القمى – يذكر لنا الخمسة أصحاب أبى الخطاب ميمية آمنوا أولاً – وبالذات – بمحمد ، وأن الله جل وعز هو محمد . وأن محمداً ظهر فى خمسة أشباح وخمس صور مختلفة . ظهر فى صورة محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . وأن الأربعة الأخيرين من هذه الخمسة تلبيس لا حقيقة لها . «والمعنى شخص محمد» لأنه أول شخص ظهر وأول ناطق نطق . لم يزل بين خلقه موجوداً بذاته يتكون فى أى صورة شاء . يظهر نفسه لخلقه فى شتى الصور . يظهر فى الشيوخ وفى النساء وفى الأطفال . يكون مرة والداً ومرة مولوداً وما هو بوالد ولا مولود وهو يظهر فى الزوج والزوجة . أما العلة فى أنه أظهر نفسه بالإنسانية والبشرانية ، فذلك لكى يأنس به الخلق ولا يستوحشوا ربهم .

وكان محمد – فى نظر هؤلاء الخمسة – آدم ونوحاً وإبراهيم وعيسى . ينتقل فى الصور لدى العرب والعجم ، ظهر لدى العرب فى صورته وفى صورة هؤلاء الأربعة ، كما ظهر لدى العجم فى صورة

الأكاسرة والملوك ، الذين ملكوا الدنيا . أن معناهم محمد لا غيره . أو بمعنى أدق هنا نظرية «المعنى والاسم» المشهورة فى تاريخ الباطنية عامة . المعنى واحد ويتعدد الأسماء .

كان محمد يظهر نفسه لخلقه فى كل الأدوار والدهور . إنه تراءى لهم بالنورانية فدعاهم إلى الإقرار بوحدانيته ، فأنكروه . فتراءى لهم من باب النبوة والرسالة ، فأنكروه أيضاً . فتراءى لهم من باب الإمامة ، فقبلوه . فظاهر الله الإمامة وباطنه ، الذى معناه محمد ، يدركه من كان من صفوته بالنورانية . أما من لم يكن من صفوته فيدركه بالبشرانية اللحمانية الدموية ، وهو الإمام . أما محمد نفسه فلا جسم له ، هو معنى ولكنه يتغير ، فالأنبياء تجليات له من لدن آدم إلى ظهور محمد الأخير ، مقامهم مقام محمد القديم المعنى ، ثم انتقل المعنى إلى فاطمة ، فهى محمد ، وهى الرب ، جعلت سورة التوحيد لها «قل هو الله أحد» إنها واحدة مهدية وفسروا «لم يلد» بالحسن ، ولم يولد «بالحسين» «ولم يكن له كفواً أحد» هو محمد . ثم نزل فى أزواجه ، إنه كان يظهر فى صورة الزوج والزوجة» كما يظهر فى صورة الوالد والولد .

ثم ظهر فى الأئمة ، وإنما هو محمد بغير جسم وبتبديل اسم «ثم ظهر فى الأبواب» وهم أبو الخطاب وبيان بن سمعان وصائد النهدى ، والمغيرة بن سعيد وحمزة بن عمار وبزيغ والسرى ومحمد بن بشير هم أنبياء أبواب لسلمان «بتغيير الجسم وبتبديل الاسم» والمعنى واحد هو سلمان وهو الباب الرسول لمحمد» يظهر معه فى كل حال ، فى العرب والعجم . فمتى ما ظهر محمد ، ظهر معه الباب سلمان ، فى أى صورة ظهر ، هو رسول محمد الرب ، متصل به . ومع الباب ، الأيتام والنجباء والنقباء والمصطفون والمختصون ، والممتحنون والمؤمنون واليتيم الأول ، هو المقداد بن عمرو الصحابى المشهور ، وسمى يتيماً ، لقربه من الباب وتفرده بالاتصال به . وهناك يتيمان ، يتيم كبير ويتيم صغير – الأول هو المقداد – كما ذكرنا – والصغير هو أبو ذر .

وأخيراً – إن من عرف هؤلاء بهذه المعانى فهو مؤمن ممتحن ، وضعت عنه جميع الشرائع ، وهى استعباد لغير المؤمنين الممتحنين ، فإذا ارتفعت الشرائع أبيح للمؤمن الممتحن جميع ما حرم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه . إن هذه الحرمات رجال ونساء ، ممن جحدوا وأنكروا الإمام ، وأن جميع ما أمر الله به من تكاليف – الصلاة والزكاة والحج والصوم والعبادات جميعاً هى الآصار والأغلال ، هى على أهل الجحود فقط ؛ عقوبة لهم . وأن المحرمات – من الزنا والخمر والسرقة واللواط وكل الكبائر ، وكذلك الوضوء وغسل الجنابة والتيمم ، فكلها اجتناب رجال ونساء واجتناب توليتهم ، فإذا حرمت على نفسك توليتهم ، فقد اجتنبت محارم الله .

ويذكر أبو خلف القمى أن هذه الفرقة المخمسة عاشت عيشة شيوعية جنسية وأنهم أبطلوا الزواج

والطلاق . وتأولوا معانيها فالزواج باطنه مواصلة أخيك المؤمن ، والصداق هو أن تطلعه على ما عندك من العلم ، والطلاق هو أن تعتزل أضدادك المقصرة ، ولا تطلعهم على أمرك . والمرأة سواء أكانت فى حوزتك أم فى حوزة أخيك المؤمن هى « بمنزلة الريحانة تقلعها إذا اشتهيت ، فإذا شممتها حييت بها أخاك المؤمن » .

ثم آمنت المخمسة بالتناسخ – على خلاف غيرهم من الغلاة – فيما يقول القمى . فأرواح الجاحدين تتقلب فى جميع الصور إنسانية وغير إنسانية . يتقلبون فى كل شىء ، حتى لا يبقى فى السموات والأرضين دواب ولا ساكن ولا متحرك إلا جرت فيه الأرواح ، حتى النجوم والكواكب ، فإذا تم ذلك كله ، صاروا جماداً أو حجرة أو حديداً . وتأولوا فى ذلك قول الله : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم » ، فسيقولون من يعيدنا : قل الله الذى خلقكم . فذلك جهنم عند المخمسة ، يعذب المقصر الجاحد بها أبد الآبدين .

أما المؤمن العارف منهم ، فلا تنتقل روحه فى شىء من الأشياء ، إنما يلبس سبعة أبدان ، هى بمنزلة سبعة أقمصة ، إذا تعدى من قميص ، يقمص آخر وذلك أن الإيمان سبع درجات ، أو سبع أدوار – والدور عشرة آلاف سنة ، والكور سبعة أدوار . والكور سبعون ألف سنة . يقمص فى كل دور قميصاً أو قالباً ، غير القالب الأول . وفى الدرجة السابعة يكون الارتقاء إلى معرفة الغاية ، فيكشف له فى نهاية الكور الغطاء ، فيصير عارفاً ، ويرفع عنه التلبيس ، فيدرك الله محمداً بذاته ، بالنورانية لا بالبشرية اللحمانية (١) .

هؤلاء هم أقدم « مخمسة » من أتباع أبى الخطاب ، وهم فرقة ميمية كما رأينا تمثل الآراء الباطنية فى أول ظهورها الحقيقى . استخدمت فكرة النور المحمدى التى عرفت فى محيط الإمام جعفر الصادق فى صورة معتدلة ، فوضعتها فى صورة مغالية ، ثم خلطتها بعناصر مسيحية ماندائية ومانوية ومزدكية . ثم أخذت بفكرة رفع التكاليف – وهى متأثرة بالمزدكية والخرمية وربطها بالتناسخ الأفلاطونى . واستخدمت مصطلحات أفلاطونية مثل « القالب والقميص » ولعلها أن تكون قد أخذت التناسخ عن الحرنانية الأفلاطونية . إن هذه الفرقة المخمسة الميمية كانت ذات أثر كبير فى فرقة الباطنية التى تكونت فيما بعد ، وهى التى تكون الجناح الأيسر المتطرف للإسماعيلية ، وتظهر كثيراً باسمها ثم زرعت الشر الخطير فيمن أتى بعدها من فرق كالنصيرية والدروز والعلبائية وما زالت هذه الأفكار تعيش فى صورة أو فى أخرى لدى النصيرية والدروز والإسماعيلية المعاصرة . كما أنها كانت أيضاً ذات أثر خطير فى زنادقه الصوفية ، ثم فى التصوف الفلسفى عامة .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات .

ولكن سرعان ما نجد فرقة من فرق الغلاة الخمسة تجمع بين العين والميم بل تنادى بإلهية خمسة أشخاص – أصحاب الكساء – وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . واعتبرت خمستهم شيئاً واحداً ، والروح حالة فيهم بالسوية ، لا فضل لواحد على الآخر . ويقول شاعرهم :

تولیت بعد الله فی الدین خمسة نبیًّا وسبطیه وشیخاً وفاطما[1]

وهنا فقط إعلان للتولى ولكن ما يلبث هذا التولى أن يأخذ صوره الغالية على يد شريع أو الشريعى فهو – يؤمن بألوهية الخمسة ، ولهذه الخمسة خمسة إبليسية مضادة هى أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص . ثم ينتهى الشريعى كعادة الغلاة إلى أن يقر أن روح الإله حل فيه[2] .

وكان أهم تلامذة الشريعى رجلان من أشد غلاة الشيعة هما محمد بن نصير النميرى – وقد كون فرقته النصيرية وإسحق بن زيد بن الحرث صاحب فرقة الإسحاقية . وقد كان هذا الأخير من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وصاحب فرقة الجناحية الإباحية . وأما فكرتهما فهى « ظهور الروحانى بالجسمانى » وقد ظهر جبريل ببعض الأشخاص ، وتمثل بصور البشر ، وكذلك الشيطان . لذلك ظهر الله بصورة الأشخاص – وهم الخمسة المشهورون ، محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين « هم خير البرية ظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم » هذا هو معنى التأليه عند الخمسة هو نوع من التأييد الربانى ، لاعتبارهم آلهة خالقين وقادرين . وأما السبب فى اختصاص على بإطلاق اسم الإلهية عليه ، لأنه كان مخصوصاً بتأييد من الله مما يتعلق بباطن الأسرار ، وسينشأ عن هذا فكرة « المخصص » عند الإسماعيلية والدروز ، أى أنه المعلل – أى صاحب العلل . فمحمد صلى الله عليه وسلم صاحب الظواهر – وعلى صاحب السرائر « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . وقتال المشركين كان إلى النبى ، وقتال المنافقين إلى على . واستندوا فى صفة على الباطنية إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا فى عيسى بن مريم ، وإلا لقلت فيك مقالاً » وأخيراً – إن محمداً صاحب التنزيل ، وعلى صاحب التأويل ، واستندوا فى هذا إلى الحديث « فيكم من يقاتل على تأويله ، كما قاتلت على تنزيله ، ألا وهو خاصف النعل » فكل هذه العلوم ، علم التأويل وغيرها من علوم ، وقتال المنافقين ، والخوارق من مكالمة الجن وقلع باب خيبر ، وعلمه بما سيكون ، كل هذا لا « بقوة جسدانية » دليل على أن فيه جزءاً إلهيًّا وقوة ربانية ، أو يكون هو الذى ظهر الإله بصورته وخلق بيده وأمره بلسانه .

وكان على عند النصيرية والإسحاقية موجوداً قبل خلق السموات والأرض واستندوا فى هذا على أثر

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٩٣ – ٢٩٤ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

له « كنا أظلة – على يمين العرش ، فسبحنا – فسبحت الملائكة بتسبيحنا » فتلك الظلال وتلك الصور العرية عن الإظلال هى حقيقة وهى مشرقة بنور الله إشراقاً لا ينفصل عنها سواء كانت فى هذا العالم أو فى ذلك . وأطلقوا على لسان على « أنا من أحمد كالضوء من الضوء ، ولا فرق بين النورين إلا أن أحدهما أسبق ، والثانى لاحق به تال له وهذا يدل على نوع شركة » .

ويرى الشهرستانى أن الخلاف بين النصيرية والإسحاقية ، هو فى أن الأولى ترى أن محمداً وعليًّا يتشاركان فى الإلهية ، ففى كل منهما جزء إلهى ، والثانية ترى أنهما يتشاركان فى النبوة فكل منهما نبى [١] . وقد ذكر الملطى هذه الفرقة فقال « والفرقة الثامنة من الحلولية زعموا أن عليًّا ومحمداً عليهما السلام شريكان فى النبوة وأن الرسالة إليهما ، وأن طاعتهما ومعصيتهما واحد لا فرق بينهما ، وأن عليا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقول النبى عليه السلام « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » [٢] ولعل هذه الفرقة هى الإسحاقية ، وقد ذهب فخر الدين الرازى إلى أن الإسحاقية – وهى تتفق مع النصيرية فى القول بأن الله تعالى كان يحل فى على فى بعض الأوقات ، كانت باقية حتى عصره فى حلب وبعض نواحى الشام [٣] .

أما النصيرية – فما زالت تعيش حتى الآن فى سوريا وبعض أجزاء من شمال فلسطين وبالرغم من أنها تحتفظ باسم النصيرية ، غير أن كثيراً من العقائد الأخرى قد دخلت فى المذهب بحيث يختلف المذهب الآن عن المذهب الأول الذى ينسب إلى معلمها الأول محمد بن نصير النميرى أو الخصيبى النصيرى (المتوفى عام ٣٤٦) . وقد كتب ماسينيون فى دائرة المعارف الإسلامية مقالاً طويلاً عن النصيرية وتطورها .

ثم يذكر لنا فخر الدين الرازى فرقة عينية أسماها الأزلية [٤] وكان من الأولى أن نربطها بالعلياثية ، « إنها تدعى أن عليًّا قديم أزلى ، وكذلك عمر بن الخطاب إلا أن عليًّا كان خيراً محضاً وعمر كان شرًّا محضاً » . ويرى الرازى أنهم اقتبسوا هذه المقالة من المجوس . وهذه فرقة بلا شك عينية ، ولكن نظام التقابل فيها أى مقابلة الخير للشر – تذكرنا بالخمسة الخيرة عند الشريعية ومقابلتهم بالخمسة الشريرة .

وبعد : فإننا نتساءل ما هو مصدر الخمسة أو القول بالخمسة الخيرة أو بالخمسة الشريرة ، هل هى الجواهر الخمسة المنسوبة خطأ إلى أنبادوقليس ، أو إلى الحرنانية . إننى أرى – كما قلت من قبل – أنها نزعة فيثاغورية محدثة مختلطة بمختلف أنواع الغنوص .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣١٦ – ٣١٨ .
(٢) الملطى : التنبيه ص ٩ .
(٣) الرازى : اعتقادات ص ٦١ .
(٤) الرازى : نفس المصدر – والصحيفة .

الفصل الثالث

الغلو العباسي

لم يكن العباس بن عبد المطلب من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وإن كان المؤرخون فى العهد العباسي قد حاولوا – ما وسعهم الأمر – أن يضفوا عليه الكثير من القدسية ، وأن يعتبروه ممن كتم إيمانه ليكون عيناً للرسول على كفار قريش وأنه قد فعل هذا باتفاق مع رسول الله ﷺ . غير أن من الثابت تاريخيًّا أنه حضر موقعة بدر مع المشركين . وأنه أسر ومن عليه الرسول بالفداء . وإننا لنرى بعد كيف صاح عبد الله بن الحسن فى المنصور العباسي – وعبد الله تحت العذاب – « ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر » . وكان العباس بن عبد المطلب نديماً لأبى سفيان ، وقد أردفه على بغلته ، لكى يقابل الرسول قبل فتح مكة لينقذه من القتل .

ولا شك أن العباس أخلص للرسول سواء فى جاهليته – عصبية لبنى هاشم – أو فى إسلامه . وثبت مع الرسول يوم حنين حين تخلى عنه الناس وكان يحوار على بن أبى طالب يوم بيعة السقيفة . وكان يرى أن عليًّا أحق الناس بالخلافة . ولكنه ظل مخلصاً للنظام الإسلامى فى ظل أبى بكر وعمر وتورد لنا الروايات أن عمراً استسقى به السماء ، فنزل المطر وسقى الناس . وهكذا عاش العباس – عم الرسول ﷺ – بعده .

وكان عبد الله ابنه – فيما تجمع المصادر السنية حبر الأمة وعالمها ، وكان أول مفسر للقرآن مصداقاً لدعوة الرسول « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » أما الشيعة فيعتبرونه من أصحاب على ، وأنه أخذ التفسير عنه ، ونحن نعلم أنه اختلف مع على بعض الاختلاف حين تصرف ابن عباس بأموال المسلمين ، وأنه عاد إلى الحجاز غاضباً ، وكان من أسباب خذلان على فى يوم التحكيم أنه لم يرسل عبد الله بن عباس لمفاوضة عمرو بن العاص يوم الحكمين بل بعث تحت إلحاح القراء من جيشه أبا موسى الأشعرى . ويبدو أن الشيعة نفسها بعد زمن طويل من التحكيم كانت تتدارس الأمر وترى كيف أخطأت حين نزلت على رأى طائفة من القراء انقلبوا بعد إلى الخوارج . وبعثوا أبا موسى . ويتضح هذا من سؤالهم لعبد الله بن عباس : ما منع عليًّا أن يبعثك مكان أبى موسى فى يوم الحكمين ؟ فقال ابن عباس : منعه من ذلك حائل القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء . أما والله لو بعثنى مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ومبرماً لما نقض أسف إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ،

وبقى أسف ، ومع اليوم غداً ، وللآخرة خير للمتقين [١] .

وعاش عبد الله بن عباس بعد مقتل على فى حزن دائم مقيم ، يعنى فقط بالعلم الإسلامى من تفسير وفقه وحديث ، ووفد على معاوية – فيمن وفد من بنى هاشم ، ولكن لم تكن صلاته بالبيت الأموى صلات محبة ، بل صلة كاره مبغض مرغم ، ثم كره أشد الكره بيعة يزيد وإن كان قد بايع . ولكنه نصح الحسين بن على ألا يخرج إلى الكوفة ، وطلب منه أن يشخص إلى اليمن « فإنها فى عزلة ؛ ولك فيها أنصار وإخوان ؛ فأقم بها ، وبث دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق » [٢] فالرجل كان داهية ، وذا عقلية سياسية مستنيرة ، ونراه يستخدم مصطلح الدعاة ، ولم يستمع إليه الحسين ، وقتل الحسين . ثم قامت فتنة الزبير – وقد ذكرنا من قبل كيف اختلف ابن الزبير مع محمد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس ، وكيف حبسهما فى حجرة زمزم ، وكاد أن يحرقهما ، حتى أنقذهما أبو عبد الله الجدلى من قبل المختار بن أبى عبيد [٣] ، ومات عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ وصلاته على خير ما يكون بالبيت العلوى . بل تميز أيضاً عبد الله بن عباس بصلات قوية بمحمد بن الحنفية وأولاده .

وكان على بن عبد الله أصغر أولاده ، ولكنه كان أعظم قدراً ، وكان على ، هذا – من دون أولاد عبد الله بن عباس – الجد الأكبر لخلفاء بنى العباس من بعد ، ولم يرد عن على بن عبد الله علم أو مشاركة فى السياسة اللهم إلا ما يذكر من أن أخواله من بنى كندة قد منعوه بعد الحرة من مسلم بن عقبة [٤] . فهل شارك على بن عبد الله فى حرب جيش يزيد ؟. ليس هناك إشارة إلى مشاركته فيها . ولكن يبدو أنه انتقل بعد استتباب الأمر للأمويين إلى الحميمة – وهى قرية بالشراة – صقع من أصقاع الشام فى طريق المدينة إلى دمشق .

وقد ذهب بعض المؤرخين كالكامل فى المبرد أنه كان يدعى « بالسجاد » وكان يدعى بذى الثفنات . لا شك أن هذه دعاية من العباسيين لكى يضعوه مقابلاً للإمام العلوى زيد بن على المشهور بالسجاد وبذى الثفنات . كما أعلن العباسيون أيضاً أن علياً بن أبى طالب هو الذى سماه علياً وكناه أبا الحسن ودعاه بأبى الأملاك ، بينما يذهب الواقدى إلى أنه ولد فى الليلة التى قتل فيها على بن أبى طالب . وقد مات محمد بن عبد الله بن العباس سنة ثمانى عشرة ومائة وقيل أربع عشرة ومائة أو ثمانى

---

(١) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٤ .

(٣) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) المسعودى : مروج ج ٣ ص ١٨ .

عشرة أو تسع عشرة [١] .

ويبدو أن الحركة العباسية لم تبدأ فى عهد على بن عبد الله . أو على الأقل لم يكن هو معنيًا بها . ولكن قام ابنه محمد بن على بأمر الدعوة ، وبدأ بتنظيمها . وقد ذهب بعض المؤرخين كما قلنا من قبل إلى أن « الوصية » و « الإمامة » انتقلت إلى محمد بن على عن طريق غنوصى . فيذكرون أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية – سم وهو فى طريقه إلى فلسطين – بإيعاز من سليمان بن عبد الملك . وكان أبو هاشم أخطر رجال البيت الهاشمى ، ويبدو أنه كان بعد العدة لانقلاب كبير فلما علم سليمان – أرسل بعض رجاله – كما قلت من قبل – وانتظروه فى الطريق ودعوه إلى أخبيتهم وسقوه لبناً مسموماً ، فلما أحس أبو هاشم بالموت ، قال لمرافقيه : « ميلوا بى إلى ابن عمى محمد بن على بالحميمة من أرض الشراة » فلما قدم عليه قال له : يا ابن عم . أنا ميت وقد صرت إليك وهذه وصية أبى وفيها « أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك والوقت الذى يكون ذلك والعلامة . وما ينبغى لكم العمل به على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبى طالب عليه السلام . فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعاتك وأنصارك ، فاستبطنهم ، فإنى قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك . ثم هذا الرجل ميسرة فاجعله صاحبك بالعراق ، فأما الشام فليست لكم ببلاد ، وهؤلاء رسله إلى خراسان وإليك ، ولتكن دعوتكم بخراسان ... فإنى أرجو أن تتم دعوتكم ، ويظهر الله أموركم . واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية ثم عبد الله أخوه الذى أكبر منه . فإذا مضت سنة الحمار ، فوجه رسلك بكتبك ، ووطد الأمر قبل ذلك بلا رسول ولا حجة ... ثم اختر دعاتك ، فليكونوا اثنى عشر نقيباً . فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بنى إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم ، فإن النبى ﷺ إنما اتخذ اثنى عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك » . ولما سأله محمد بن على : يا أبا هاشم . . وما سنة الحمار؟ قال : لم يمض مائة من نبوة قط إلا انقضت أمورها لقول الله تعالى « أوكالذى مر على قرية ... الآية ، فإذا دخلت مائة سنة ، فابعث رسلك ودعاتك ، فإن الله متمم أمرك » [٢] .

تلك هى الوصية التى يذكر اليعقوبى أن أبا هاشم قد دفعها ، كما دفع وثائق الدعوة ، إلى محمد بن على قبل وفاة أبى هاشم عام ٩٧ هـ . ومن المحتمل أن أبا هاشم – وقد أحس بالموت يقترب منه بعد أن قدم له السم – أمر أتباعه بحمله إلى أقرب الناس إليه فى الشام وهو محمد بن على ، وأنه أفضى إليه قبل موته بأسرار الدعوة التى كان يقوم بها وتنظيماتها السرية ، ولكنى أشك فى صيغة الوصية وأسلوبها . فلم

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧٩–٥٨٣ .
وانظر اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦٢ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ . ص ٤٠–٤١ .

يكن أبو هاشم غنوصيًّا ، بل هو أقرب إلى المعتزلة ، ولم يكن أبو هاشم من السذاجة بأن ينقل الحق الشرعى لأولاد عمه الأقربين أولاد فاطمة إلى أولاد عمه البعيدين أولاد عبد الله بن عباس . إن الأرجح أنه ترك لهم وثائق الدعوة وتنظيماتها ، لكى يقوموا بها « للرضا من آل محمد » أى لأبناء فاطمة . وقد اتخذ أبوه من قبل نفسه درءاً لحركة المختار لكى ينتقم من قاتلى أخيه الحسين ، ولم يقحم ابن أخيه عليًّا زين العابدين فى أية حركة خوفاً عليه من المصير الذى لاقاه أبوه من قبل وإخوته فى سهل كربلاء . وقلم ادعى الوصاية من أبى هاشم فرق متعددة كما ذكرنا من قبل ، بل انقسمت الكيسانية فرقاً ولكن أهمها كانت العباسية وسميت فيما بعد بالعباسية الراوندية . وقد ذهبت إلى أن أبا هاشم أوصى إلى محمد ابن على وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبى العباس السفاح [١] .

وكان محمد بن على العباسى من أذكى رجال التاريخ ، وأوتى حظًّا من البراعة والمهارة السياسية . فسرعان ما انتشرت بين الشيعة فى الكوفة وخراسان دعوته الغنوصية وأن الوصية انتقلت إليه عن طريق إمام علوى هو أبو هاشم .

وفى عام ١٠٠ هـ وإتباعاً لوصية أبى هاشم ، أرسل محمد بن على بن عبد الله بن عباس أكبر أتباع أبى هاشم ميسرة أبا رباح النبال مولى الأزد إلى العراق وأرسل محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان . يقول اليعقوبى « فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرسوا غرساً » [٢] وقد كان هذا فى عهد عمر بن عبد العزيز . ولم يكن عمر بن عبد العزيز فى قسوة أسلافه ، فأحس المسلمون فى عهده ببعض الحرية ولكن حين تولى يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ هـ . بدأ مرة أخرى فى مراقبة الهاشميين ، فوجه والى خراسان سعيد بن عبد العزيز رسلاً لأبى رباح ميسرة داعية بنى هاشم متنكرين فى زى التجار ، فدعاهم وسألهم عن حالهم . فقالوا : نحن تجار . فخلى سبيلهم فخرجوا من خراسان وقد سرت الدعوة فيها سرياناً بطيئاً منظماً حتى قام سليمان بن كثير الخزاعى وبعض من رجاله يدعون إلى بنى هاشم سنة ١١١ هـ . وظهرت دعوتهم وكثر من أجابهم ، ثم قدم داعية آخر لمحمد بن على وهو بكير بن ماهان فأجابه كثير من الناس إلى خلع بنى أمية وبيعة بنى هاشم ، وكثر أشياعهم ، ثم حين حضرت ابن ماهان الوفاة استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم وزير آل محمد . وأرسل بكير إلى محمد بن على ، أنه استخلف أبا سلمة الخلال ، فأقره وكتب إلى أصحابه يأمرهم بالسمع والطاعة له ، فأجابوه جميعاً إلى ذلك [٣] . ولكن خالد بن عبد الله القسرى

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ... ص ٥٠ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦٠ .

فى خلافة هشام بن عبد الملك أرسل أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان فأخذ جماعة منهم وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قتلهم ، فانتكست الحركة إلى حد ما ، وفى هذه الأثناء انضم إلى الحركة العباسية أبو مسلم الخراسانى .

وفى عام ١٢٥ هـ . قدم سليمان بن كثير وجماعة من وجوه الشيعة العباسية على محمد بن على ومعهم أبو مسلم الخراسانى ، فقال لهم محمد « لن تلقونى بعد وقتى هذا وأنا ميت فى سنتى هذه ، وصاحبكم ابنى إبراهيم مقتول » فإذا قضى الله فيه قضاءه فصاحبكم عبد الله بن الحارثية فإنه القائم بهذا الأمر وصاحب هذه الدعوة الذى يؤتيه الله الملك ، ويكون على يديه هلاك بنى أمية ، ثم خرج إليهم ابنه أبا العباس – حتى رأوه وقبلوا يديه ورجليه ثم قال لهم « إن عبد الرحمن صاحبكم – يعنى أبا مسلم – فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه القائم بهذه الدولة »[1] .

وهكذا جعل العباسيون من محمد بن على موازياً ومقابلاً لجعفر الصادق ، فإذا كانت الشيعة الإمامية يعتبرون جعفراً ملهماً ، وأن الله أطلق على لسانه كثيراً من الغيبيات ، فكذلك الشيعة العباسية أطلقت على لسان محمد بن على الكثير من هذه الأمور المغيبة .

ومات محمد بن على فى آخر سنة ١٢٥ هـ ، فلما بلغ وجوه شيعته وفاته ، قدموا على ابنه إبراهيم وبايعوه إماماً لهم ، وهو أول عباسى أطلق عليه لقب الإمام ، فكان يدعى إبراهيم الإمام . ونسب إليه شيعته العلم اللدنى ، والتنبؤ بالمستقبل . ولما ظهر أمر الدعوة قبض مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية على إبراهيم الإمام وحبسه بحران ، ولما علم إبراهيم أن مروان سيقتله ، أرسل مولاه سابقاً الخوارزمى إلى أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد بالوصية ، وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء وأمره بترك الحميمة بأرض الشراة وأن يتوجه إلى الكوفة فوراً .

وقتل إبراهيم الإمام عام ١٤٢ هـ وتوجه أبو العباس مسرعاً إلى الكوفة إلى وزير آل محمد أبى سلمة حفص بن سليمان . ولكن أبا سلمة كان يفكر فى واد آخر بعد وفاة إبراهيم الإمام ، كان عهده – فيما يبدو – لإبراهيم الإمام فقط . وكانت الدعوة « للرضا من آل محمد » وهذا يعنى لأبناء فاطمة فى نهاية الأمر . وخشى أبو سلمة من انتقاض أمر الشيعة – بعد وفاة إبراهيم الإمام . فحين وصل أبو العباس السفاح وأهل بيته أخفاهم فى الكوفة ، وراسل الإمام جعفراً الصادق وعبد الله الحسن . ورفض جعفر الصادق أن يكون له فى الأمر شىء وتلاحى مع عبد الله بن الحسن حين أراد الأخير أن يبايع آل بيت الرسول لابنه محمد بن عبد الله – وبينما أبو سلمة فى انتظار رسله لجعفر الصادق ولمحمد بن عبد الله ،

---

(١) اليعقوبى : ج ٣ ص ٧٢ .

إذ بجماعة من شيعة خراسان يخرجون أبا العباس السفاح إلى مسجد الكوفة الجامع ويبايعونه بالخلافة ، ورضخ أبوسلمة وبايع .

ويتبين لنا من هذا أن شيعة خراسان آمنوا بالوصاية العباسية فحين علموا أن إبراهيم الإمام قد مات سألوا : لمن الوصية بعد ؟ ! ! فلما علموا أنها لأبى العباس السفاح بايعوه فوراً .

ويتضح هذا الاتجاه السياسى – من خطبة داود بن على عم السفاح إمام الخليفة الجديد على منبر الكوفة « . . . إنه والله – أيها الناس ما وقف هذا الموقف بعد رسول الله ﷺ أولى به من على بن أبى طالب ، وهذا القائم خلفى »[1] .

وهذه هى النظرية العباسية الأولى فى الخلافة ، لا تعترف بالشيخين وإنما ترى أن الخلافة بعد رسول الله إنما كانت لعلى ، ويستند العباسيون الأوائل حتى عن الخليفة المهدى فى هذا إلى أن العباس نفسه طلب من علِى أن يمد يده ليبايعه قائلاً : « يا ابن أخى – هلم إلى أن أبايعك ، فلا يختلف عليك اثنان » .

غير أن الخليفة المهدى – محمد بن عبد الله بن جعفر المنصور – أعلن نظرية سياسية جديدة تنكر أحقية على وتنكر الوصية وتستند على الإرث . أنكر المهدى انتقال الإمامة للعباسيين عن هذا الطريق الغنوصى خلال محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم . بل قرر أن الإمامة بعد الرسول ﷺ كانت للعباس ابن عبد المطلب وكان العباس عمه ووارثه وأولى الناس به . والخلفاء الأربعة كانوا غاصبين متوثبين . فعقد المهدى الإمامة للعباس بن عبد المطلب ، وقد أنشد أحد شعراء العباسيين هذه النظرية الجديدة التى تستند على الإرث فقال :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

ثم عقدها المهدى بعد العباس لعبد الله بن العباس – عالم الأمة وحبرها ، ثم عقدها بعد عبد الله لابنه على المعروف « بالسجاد » عند العباسيين ، ثم لمحمد بن على ، ثم لإبراهيم « الإمام » وعقدها إبراهيم الإمام لأخيه عبد الله أبى العباس ، ثم لأخيه أبى جعفر المنصور ، ثم عقدت للمهدى نفسه[2] .

ونحن نتساءل : ما الذى دفع المهدى إلى إعلان هذه النظرية الجديدة ؟ كان المهدى تقيًّا متديناً ، ونحن نعلم أنه تتبع الزنادقة ، وقتلهم حيثما كانوا ، كما تتبع الغلاة من المنصورية والخناقين ، وقتل الحسين بن منصور العجلى . ومن المرجح أن الفكرة الغنوصية التى تبنتها الكيسانية ومن خلالها نفذت

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٨٧ ، ٨٨ ؛ والمسعودى : مروج الذهب ج٣ ص١٨٥ .

(٢) النوبختى : الشيعة ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

إلى الدعوة العباسية أقلقت الرجل كثيراً ، فرأى فكرة انتقال الوصية إلى العباسيين خلال أسطورة العلم السرى المنسوب إلى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إنما تشبه تماماً انتقال الوصية إلى أبى منصور العجلى وغيره من الغلاة ، وقد جعل هو حياته وقفاً على محاربة هذا الاتجاه الغنوصى ، فرأى ابتداع نظرية سياسية تستند على الفقه وتتلمس فيه مصدراً لأحقية البيت العباسى بتولى الخلافة . ووجد فى نظرية « الوراثة الإسلامية » مخرجاً له ومستنداً . فأقرب الناس إلى محمد ﷺ وأحقهم بوراثة الإمامة بعد الرسول هو عمه العباس لا ابن عمه على ولا أولاد فاطمة ، لأنه عمه ووارثه وعصبته ، لقول الله عز وجل « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » [١] . ثم إذا أخذنا بمبدأ الوصية . فإن تولى المهدى للخلافة يكون بدون مسوغ ، لقد أوصى أبو العباس السفاح لأخيه المنصور ثم لابن أخيه عيسى ابن موسى من بعده ، ولكن المنصور ألغى هذه الوصية ، واستخلف ابنه المهدى . فكان لابد للمهدى من أن يضع نظرية تدعم خلافته ، وهى أن الخلافة « إرث » وهو وارثها عن أبيه ، مادامت أحقية الخلافة لمن هو أقرب الناس للخليفة ، فإن كان العباس بن بعد المطلب أقرب الناس للرسول وبالتالى هو أحق بالخلافة من على ، فالمهدى أقرب الناس للمنصور ، وهو أحق بالخلافة من عيسى بن موسى .

وقد انقسمت العباسية المعتدلة فعلاً فى أيام المهدى إلى فريقين : فريق آمن بتقديم المهدى وانضوى تحت إمامته ، وفريق آخر ثبت على إمامة عيسى بن موسى وأنكر إمامة المهدى ، وأجراها فى ولد عيسى [٢] .

وكان يجمع شيعة بنى العباس اسم الراوندية – ويبدو أن الراوندية نسبة إلى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى الراوندى ، وكان يذهب إلى أن روح الله تناسخت فى الأنبياء والأئمة إلى أن انتهت إلى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت إليه [٣] ، ويبدو أنه بعد وفاة عبد الله بن عمرو حرب انضم أتباعه إلى الكيسانية – والتفوا جميعاً حول الإمام العباسى ولكن غلب الاسم الراوندية على شيعة بنى العباس .

ويذهب المسعودى « إلى أن من تأخر من الراوندية وانتقل وتحير عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية – وهم الحريانية أصحاب أبى مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية – وكان يلقب بحريان – أن محمد بن الحنفية هو الإمام بعد على بن أبى طالب ، وأن محمداً أوصى إلى

---

(١) المسعودى : مروج ج ٣ ص ١٦٦ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٠–٥١ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ١٤٩ .

ابنه أبى هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى إلى على بن عبد الله بن العباس . . . إلى أن انتهت الوصاية إلى أبى عبد الله السفاح .

وهنا تقابلنا شخصية أبى مسلم الخراسانى . ولقد أحاط الغموض بهذه الشخصية الكبرى فى تاريخ الإسلام . هل هو أعجمى أم عربى أم كردى ؟ هل هو من نسل بنى العباس أنفسهم أى هل هو ابن لسليط بن عبد الله بن العباس أم هو مولى ؟ هل هو شخصية سياسية حربية ، أم هو وجه غنوصى استخدم الغنوص القاسى القائم المكبوت فى خراسان البعيدة عن موطن الخليفة دمشق . أم أنه كل هذا – وأنه استخدم التقاة من المسلمين ، كما استخدم الغنوص ، وجذب إليه العرب كما جذب إليها علوج العجم ، وخرج بهذا كله ليقضى على دولة بنى مروان ويقيم أعظم دولة عرفتها العصور الوسطى . وهى دولة العباسيين . وفعل كل ما أراد ، ثم مات ميتة دنيئة فى غدر وخسة على يد الخليفة الوحشى أبى جعفر المنصور بعد أن وطأ له ملكه ؟

إننا لا نرى غلوًّا فى أيامه أو حركات ناشزة فى خراسان أو عقائد غنوصية تظل ظاهرة باسمه . ولكن بعد موته ، قام بعض الراوندية وأعلنوا أن المنصور إله وأبا مسلم نبى ، وأنه يعلم سرهم ونجواهم . ولعلهم استندوا فى هذا إلى خطبة المنصور نفسه بعد مقتل أبى مسلم «أيها الناس لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه [١] ، وأعلنوا أيضاً أن أبا مسلم نبى مرسل ، ولما بلغ المنصور قولهم ، وقبض على جماعة منهم وطلب منهم التوبة أبوا وقالوا للمنصور ربنا يقتلنا شهداء ، كما قتل أنبياءه ورسله ؛ فقتل المنصور الكثيرين منهم [٢] .

ولكن تحركت فرقة «الأبى مسلمية أو المسلمية» فى خراسان على يد الخرمية – نسبة إلى خرم آباد قرية من قرى الرى كان يسكن فيها الغلاة – وأعلن البعض منهم أن أبا مسلم لم يمت ولن يموت ، بل سيظهر ويملأ الأرض عدلاً . وقطعت فرقة أخرى بموته ونادت بإمامة ابنته فاطمة بل وبتأليهها ويسمى هؤلاء بالفاطمية – اجتمعوا جميعاً تحت قيادة «يستفاد» أو «سنباذ» واستولوا على الرى فقاتلهم المنصور وقتل معظم جيش يستفاد عام ١٣٨ هـ [٣] . ثم قامت الأبومسلمية مرة أخرى بقيادة استاذيس . وقد قتل عام ١٤٩ وكان أيضاً خرميًّا .

ما هى آراء الخرمية ؟ ، يرى النوبختى أن بدء الغلو كان منهم ، وأن الكيسانية والعباسية والحارثية

---

(١) النوبختى : الشيعة ص ٥٢ المسعودى : مروج ج ٣ ص ٢١٩ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٣٢٠–٣٢١ .

انتهت إليهم . ويسميهم أحياناً الخرمدينية .

وقد أعلنوا أن الأئمة آلهة وأنهم أنبياء ورسل وملائكة . وأن الخرمية أول من تكلم فى الأظلة والتناسخ والدور فى هذه الدنيا . وأبطلوا العقائد الإسلامية – القيامة والبعث والحساب . وقالوا إنه لا دار إلا هذه الدنيا ، وفسروا القيامة بأنها خروج الروح من البدن ودخوله فى بدن آخر غيره ، إن خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا . وأنهم مسرورون فى هذه الأبدان أو معذبون فيها . وأن الأبدان هى الجنات وهى النار . الأولى هى الإثابة فى الأجسام الحسنة الإنسية المنعمة فى الحياة والثانية هى العذاب فى الأجسام الرديئة المشوهة من كلاب وقردة وخنازير وحيات وعقارب وخنافس ، محولين من بدن إلى بدن ، معذبين فيها هكذا أبد الأبد ، فهى الجنة والنار – «لا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار غير هذا على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأئمتهم ومعصيتهم لهم ، فإنما تسقط الأبدان وتخرب ، إذ هى مساكنهم فتتلاشى الأبدان وتفنى وترجع الروح فى قالب آخر منعم أومعذب» ويرى النوبختى أن هذا هو معنى الرجعة عندهم ، فالأبدان قوالب ومساكن بمنزلة الثياب التى يلبسها الناس فتبلى وتطرح ويلبس غيرها وبمنزلة البيوت يعمرها النامى فإذا تركوها وعمروا غيرها ، خربت ، والثواب والعقاب على الأرواح دون الأجساد ثم تأولوا هذا كله فى ضوء القرآن – فأوردوا لتدعيم فكرتهم الآية «فى أى صورة ماشاء ركبك» وقوله تعالى : «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» وقوله «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» فجميع الحيوانات إذن من طير ودواب وسباع كانوا أمماً مصداقاً للآية القرآنية ، خلت فيهم النذر من الله تعالى ، واتخذ بهم عليهم الحجة ، فأما من كان صالحاً ، فقد جعل الله روحه بعد وفاته وإخراب قالبه وهدم مسكنه فى جسد صالح ، وهذا هو النعيم ، ومن كان منهم كافراً عاصياً ، نقل روحه إلى جسد خبيث مشوه يعذبه فيه بالدنيا ، وجعله فى أقبح صورة وأنتن رزق وأقذره . ولقد فعل الخرمدينية هذا فى ضوء التفسير الغنوصى للقرآن . فتأولوا الآية «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمَن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربى أهانن» فكذب الله تعالى هؤلاء ، ورد عليهم فى قولهم لمعصيتهم إياه فقال : «كلا بل لا تكرمون اليتيم : واليتيم هو النبى ﷺ ، ولا تحاضون على طعام المسكين : وهو الإمام وتأكلون التراث أكلاً لما ، ولا تخرجون حق الإمام مما رزقكم وأجراه لكم [1] » .

وهكذا فسر الخرمية الآيات القرآنية ، تفسيراً غنوصيًّا بحتاً ، مازجين العقائد الثنوية القديمة – مانوية وديصانية ومانداثية وبما تحتويها من عناصر أفلاطونية وفيثاغورية محدثة بالإسلام أو بالعقيدة الشيعية فى بنى العباس .

---

(١) النوبختى : الشيعة ص ٣٧–٣٨ .

ونلاحظ أن هذه الفرقة ميمية ، لأن عنصرها الأول الوجودى هو محمد ﷺ ، ثم تفرع عنه عمه العباس وأولاده حتى انتهى الأمر إلى أبى مسلم الخراسانى . ونلاحظ أيضاً أنه لا توجد هنا دعوى للألوهية ، وإنما هم يؤمنون فقط بالتناسخ ، ويسميهم الملطى أصحاب التناسخ ، ويعتبرهم فرقة من الحلولية ويفسر مذهبهم « بأن الله عز وجل نور على الأبدان والأماكن ، وأن أرواحهم متولدة من الله القديم ، وأن الجسد لباس لا روح فيه ولا ألم عليه ولا لذة له ، وأن الإنسان إذا فعل الخير ومات ، انتقلت روحه إلى حيوان ناعم ، يتنعم فيه ، ثم يرجع إلى جسم الإنسان بعد مدة ، وإذا فعل الشر ومات ، صارت روحه فى بدن حمار ذبر أوكلب جرب يعذب فيه مدة ثم يعود إلى جسم الإنسان ، ولم تزل الدنيا هكذا ، ولا تزال تكون هكذا »[1] .

نستنتج من هذا أن الكيسانية تحولت فى خراسان إلى عباسية راوندية ، أى « العباسية الخلص » . ثم أتى الدعاة السريون من كل مكان واستخدمهم أبو مسلم الخراسانى – على مختلف مشاربهم ، ويجمعهم جميعاً اسم الراوندية – والمسودة « للبسهم السوداء » – وسار هذا الخليط ليقضى على بنى أمية . ولعل هذا ما دعا نصر بن سيار عامل مروان بن محمد على خراسان فى قصيدته المشهورة للخليفة مروان بن محمد فى حران ، أن يذكر أن الحركة ستقضى على العرب والإسلام ، وقد تبين له ما فيها من عقائد سرية غنوصية متناقضة ، وما يجمع جيش أبى مسلم من أجناس متعددة متباينة :

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حرباً ... مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام [2]

وكان أبو مسلم الخراسانى واسطة العقد بين هؤلاء جميعاً ، فلما قتل أبو مسلم توزعت العباسية الراوندية : فجمهرة شيعة خراسان بقيت على ولائها للمنصور ، والرزامية – وأصل مذهبها الكيسانية فيما يقول النوبختى – أقامت على ولاية أسلافها وولاية أبى مسلم سرًّا [3] .

ويرى البغدادى أنهم قوم بمرو أفرطوا فى ولاية أبى مسلم الخراسانى وأنهم اعتقدوا أن الإمامة انتقلت إليه بعد أبى العباس السفاح [4] ويبدو أن أبا مسلم كان يغذى هذه الفرقة ويؤمن بآرائها « لأنهم ساقوا

---

(١) الملطى : التنبيه .. ص ٢٩ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٣) النوبختى : الشيعة ص ٣٧ - ٣٨
(٤) البغدادى : الفرق ص ١٥٥ .

الإمامة إليه » [١] ثم إن مجموعة الرزامية أقرت بقتله ، غير فرقة هى الأبو مسلمية تغالت فيه أشد الغلو وقالوا له حظ من الإمامة وأن روح الإله حلت فيه وأنه خير من جبرائيل وميكائيل وسائر الملائكة وهو حى لم يمت وهم على انتظاره . ويقول البغدادى « وهؤلاء بمرو وهراة يعرفون بالبركوكية ، فإذا سئل هؤلاء عن الذى قتله المنصور قالوا : كان شيطاناً تصور للناس فى صورة أبى مسلم » [٢] .

وقد تنبه الشهر ستانى إلى حقيقة أبى مسلم الخراسانى فيقول : « كان على مذهب الكيسانية فى الأول ، اقتبس من دعاتهم العلوم التى اختصوا بها ، وأحس منهم أن هذه العلوم مستودعة فيهم ، فطلب المستقر فيه » أى أنه تنبه إلى أن محمد بن الحنفية وأولاده ثم العباسيين من بعدهم كانوا الأئمة المستودعين ، وكان أولاد فاطمة ، هم الأئمة المستقرين فهل عرفت نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر وهى نظرية غالية – إبان ذلك الوقت ؟ وهناك رواية تذكر أن أبا مسلم أنفذ إلى الإمام جعفر الصادق « إنى قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاة بنى أميه إلى موالاة أهل البيت ، فإن رغبت فيه ، فلا مزيد عليك » فكتب إليه جعفر الصادق « ما أنت من رجالى ولا الزمان زمانى » . فحينئذ حاد إلى أبى العباس بن محمد وقلده الخلافة [٣] .

ونحن نعلم أن أبا سلمة الخلال – هو الذى فعل هذا ، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون أبو مسلم – وهو كيسانى فى حقيقته – قد فهم تماماً أن وصية أبى هاشم لمحمد بن على العباسى إنما كانت للدعوة « للرضا من آل محمد » أى لأبناء فاطمة وأن إبراهيم الإمام قد أسر بهذا لأبى مسلم ، وأن الدعاة السريين إنما كانوا « يدعون للرضا من آل محمد » وكان يفعل هذا أيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب ، معلناً أنه يدعو للرضا من آل محمد ، ثم استقل بنفسه . من المحتمل كثيراً أن الدعوة كانت تتركز حول الفواطم من أول الأمر ، فهل لعبت فكرة الإمام المستودع والإمام المستقر دورهما ؟ فالدعوة لإبراهيم الإمام المستودع ، حتى تنقل فيما بعد إلى الإمام المستقر سواء كان جعفراً الصادق أو غيره من أبناء فاطمة . وهل ظهرت حقًّا هذه الفكرة فى حركة المختار؟ فالمختار بن أبى عبيد كان يعمل باسم محمد بن الحنفية ، ولكن لتدعيم إمامة على زين العابدين فى آخر الأمر ، وقتل المختار قتلة الحسين باسم محمد بن الحنفية وحارب باسمه ، وذلك حفاظاً على البقية الباقية من أولاد فاطمة أن يمسهم سوء إذا ما فشلت الحركة ، ونحن نجد أيضاً صالح بن على يقتل بنى أمية ، ويعلن أنه يفعل هذا انتقاماً لمقتل الحسين بن على وزيد بن على بن الحسين فى حديثه مع ابنة مروان الكبرى [٤] . إننى أستبعد ظهور نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر إبان هذه الأوقات جميعاً . من المحتمل أن الفكرة – فكرة الإمام

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٤٧ .
(٢) البغدادى : الفرق ص ١٥٥ .
(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .
(٤) المسعودى : ج ٣ ص ١٣ ص ٢٠٦ .

المستودع والإمام المستقر – قد تحققت صورتها ومادتها فى حركة المختار وفى حركة العباسيين ولكن بغير أن تصاغ هذه الصياغة المنهجية فى نظرية : كما كانت نظرية الإسماعيلية المتأخرة .

حقًّا إننا نرى أنه حين جمع عبد الله بن على الأمويين بنهر أبى فطرس بين فلسطين والأردن ، وعلموا أنه سيقتلهم جميعاً ، استعطفوه واسترحموه بالقرابة والرحم فقال « هيهات ، قطع ذلك قتل الحسين » (١) . ولكن العباسيين لم يكونوا أبداً عملاء لبنى فاطمة ، ولم يفكروا قطعاً فى نقل الخلافة إليهم ، فالحركة العباسية إذن إنما كانت فى أول الأمر تدعى أنها تعمل لبنى فاطمة تحت اسم الرضا من آل محمد ، ولكنهم استقلوا بالأمر دونهم فى آخر الأمر . من المحتمل كثيراً أن يكون أبو مسلم قد عرف هذا ، فلما رأى جعفراً الصادق يرفض الأمر ويأباه وتحول الأمر إلى بنى العباس ، رأى أن يدعو إلى نفسه ، وأن يمهد السبيل للأمر . وهذا سر ازدرائه لأبى جعفر المنصور فى حياة السفاح ، ولعله كان يأمل فى القيام بانقلاب فى خراسان يتولى به هو خلافة المسلمين ، ولكن المنصور كان من المهارة السياسية والحنكة بحيث تمكن من اغتياله ، ثم القضاء على حركة تابعيه سنباذ أو يستفاد واستاذيس (٢) . وبقيت الحركة كامنة . والغنوص يعمل فى أنحاء خراسان حتى ظهر فى أبشع صورة عند المقنع الخراسانى وفى عهد ابن المنصور الخليفة محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى . وقد نسبت فرقة إليه فسميت بالمقنعية . وقد اختلف فى اسم المقنع ، فقيل هو عطاء وقيل هو هاشم بن حكيم المروزى كان قصاراً من أهل مرو . ويبدو أنه كان ينتمى إلى الرزامية فى بادئ الأمر – أى أنه كان كيسانيًّا كأبى مسلم والمقدسى يوضح هذا فيقول إن المقنع كان يؤمن بأن روح الله التى كانت فى آدم تحولت إلى آدم ثم تتابعت فى الأنبياء ثم تحولت إلى محمد بن الحنفية (٣) ثم إليه هو فهو كيسانى ثم اعتنق الرزامية وكان من دعاتها السريين ، وأخلص لأبى مسلم ، وقد تعلم المقنع العلوم السرية وكان من عادة الدعاة السريين معرفة الهندسة والحيل والنيرنجات والكيمياء (٤) .

وقتل أبو مسلم الخراسانى وبقى الرجل يبث دعوته فى عهد المنصور ، ولكنه خشى الظهور أو لم تكن دعوته قد نضجت حينئذ . ثم أعلنها ، يقول ابن خلكان إنه ادعى الربوبية على طريق المناسخة ، أى أن النور الإلهى حل فيه عن طريق التناسخ . أما هذا الطريق التناسخى فكان كالآتى : انتقل النور إلى صورة آدم – ولذلك قال الله للملائكة « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » فاستحق لذلك

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٩٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ١٠٤ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٦ ص ٩٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والبيرونى : الآثار الباقية ص ٢١١ .

السخط ولم يتنبه المؤرخون المسلمون إلى أن هذه هي فكرة الخلافةالمشهورة «إني جاعل في الأرض خليفة» ، وقد أثرت هذه الفكرة في الصوفية الفلسفية ، وهي تستند أيضاً على الحديث الموضوع ذي الصبغة اليهودية «خلق الله آدم على صورته» وهي فكرة غنوصية مستمدة من فيلون الفيلسوف اليهودي . ثم أعلن المقنع أن الصورة الإلهية تحولت إلى نوح ثم إلى صورة واحد واحد من الأنبياء والحكماء «ولعل قوله بأن الروح تناسخت في الحكماء» دليل على معرفته الواسعة بالفلسفة والغنوص – ثم يقرر أنها تحولت إلى صورة أبي مسلم ثم ظهرت فيه هو [1] .

أما البغدادي فيعرض المذهب في صورة أخرى ، فيصله بالبيت العلوي . وأنه يزعم لأتباعه أنه هو الإله ، وإن كان قد تصور مرة في صورة آدم ، ثم تصور في وقت آخر بصورة نوح ، وفي وقت آخر بصورة إبراهيم ثم تردد في صورة الأنبياء إلى محمد ، ثم تصور بعده في صورة علي ، وانتقل بعد ذلك في صور أولاده ، ثم تصور بعد ذلك في صورة أبي مسلم ، ثم إنه زعم أنه في زمانه الذي كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم . وكان اسمه هشام بن حكيم . وقال : إني إننا أنتقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي التي أنا عليها ، ومن رآني احترق بنوري [2] .

من الواضح إذن أنه لا يقول بألوهية هؤلاء ولا بألوهيته هو ، وإنما هو غنوصي يؤمن بالحقيقة المحمدية ، وأنها انتقلت من نبي إلى نبي ، حتى انتهت إليه ، وهي نظرية طالما رأيناها لدى غلاة الشيعة الغنوصيين ، ونراها في نفس الصورة التي ظهرت عند المقنع لدى البهاء مؤسس البهائية الحديثة ، وقد تقنع هو أيضاً ، خوفاً على أتباعه من أن يحرقهم سبحات الوجه . فالمذهب إذن مزيج من فلسفة غنوصية ومسيحية ويهودية وإسلام .

ويرى ابن خلكان أن قوماً قبلوا دعواه وحاربوا دونه «مع ما عاينوا من عظيم ادعائه وقبح صورته ، لأنه كان مشوه الخلق أعوراً لكن قصيراً ، وكان لا يسفر عن وجهه ، بل اتخذ وجهاً من ذهب «فتقنع به ، فلذلك قيل له المقنع» ويرى أنه أثر فيهم بالسحر والشعوذة والتمويهات ، بل يبدو أن الرجل كان يستخدم الحيل الفلكية والهندسية ، بحيث صنع «قمراً» يطلع ويراه الناس من مسافة شهر من موضعه ، ثم يغيب فعظم اعتقادهم فيه» وقد ذكر هذا القمر أبو العلاء المعري فقال :

أفق إنما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع

وكذلك ذكره سناء الملك :

إليك فما بدر المقنع طالعا بأسحر من ألحاظ بدر المعمم

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥٣ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وقد افتتن الناس به وأقبلوا على قريته بمرو «كازه كيمن دات» فبنى حصناً كبيراً بناحية كسن ونخشب يقال له سيام وأقبل إليه عدد كبير من أهل الصغد والأتراك الخلجية [١] ، واحتجب عن الناس كما قلت بقناع من ذهب أحياناً ومن حرير أحياناً أخرى وكون لأتباعه مجتمعاً إباحيًا ، فحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات . وانضم إليه كثيرون من كفرة الأتراك الخلجية ودامت فتنته أربعة عشر عاماً يغير على المسلمين ويقتل ويسبي . وكان أتباعه يلبسون الملابس البيض ، وسمو بالمبيضة لتبييضهم ثيابهم مخالفة للمسودة من العباسيين .

وأرسل إليهم المهدى قائده معاذ بن مسلم فى سبعين ألفاً من المقاتلة ثم أتبعه بقائد آخر هو سعيد بن عمرو الجرشى فقاتلهم هذا الآخر سنوات قتالاً عنيفاً . وكان المقنع يحيط بحصنه خندق كبير ، وقاتل جنده من وراء خندقه ، ولما عبر المسلمون الخندق استأمن من جند المقنع ثلاثون ألفاً ، خلا من قتل من قبل ، ولما أحس المقنع بالنهاية ، جمع نساءه وسقاهم السم ، فمن منه ، أما هو فقد أحرق نفسه فى تنور كان قد أعده ، وأذاب النحاس مع القطران ، حتى ذاب فيه . وقد افتتن به أصحابه بعد ذلك حين لم يجدوا له جثة ولا تراباً . وزعموا أنه صعد إلى السماء .

ويرى البغدادى أنه حتى عصره هو – أى القرن الخامس الهجرى – كان أتباع المقنع ينتشرون فى جبال إبلاق بخراسان ، ولهم فى كل قرية من قرى خراسان مسجد لا يصلون فيه ، وهم يستحلون الميتة والخنزير ، وأنهم يعيشون معيشة إباحية ، فيستمتع الرجل منهم بامرأة غيره .

ويرى أيضاً أنهم يقتلون المسلمين خفية ، أى أنهم نوع من الخناقين . ولكنه يرى «أنهم مقهورون بعامة المسلمين فى ناحيتهم» [٢] .

ثم ظهر فيروز – حفيد أبى مسلم – ثم بابك وكان فى أرجح الأقوال من نسل أبى مسلم .

غير أن ابن النديم يعطينا صورة عن أبى مسلم الخراسانى تختلف عن صورة الرجل الذى يمالئ الغنوصية ويذهب إليها ، بل على العكس ، إنه يحاربها ويقضى عليها . فيخبرنا أنه ظهر فى صدر الدولة العباسية ، وقبل تولى أبى العباس السفاح للخلافة ، رجل يقال له فريد من قرية روى من أبر شهر ، وكان فريد مجوسيًا «يصلى الصلوات الخمس بلا سجود ، متياسر عن القبلة أى أنه وضع صلاة خاصة ، وألغى الصلاة نحو القبلة ، ثم تكهن ودعا المجوس إلى مذهبه ، فاستجاب له خلق كثير . فوجه أبو مسلم الخراسانى – شبيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضا عليه الإسلام ، فأسلم وسود ،

(١) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٥٧٣ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٥٦ ، والبيرونى : الآثار ص ٢١٠

أى انضوى تحت لواء جيش أبى مسلم .ولكن أبا مسلم لم يقبل إسلامه لتكهنه فقتله . ويذكر ابن النديم أنه إلى وقته كان على مذهبه جماعة بخراسان .

ويذكر لنا ابن النديم أيضاً أن الأبا مسلمية هى من الاعتقادات التى حدثت بخراسان ، وأنها ظهرت بعد مقتله ، فقد حدث بعد قتل أبى مسلم أن هرب دعاته والملتفون به إلى مختلف البلاد ، معلنين إمامته وأنه ما زال حيًّا يرزق ويخص بالذكر منهم رجلاً يعرف بإسحق الترك ، فإنه رحل إلى بلاد ما وراء النهر ، وادعى أن أبا مسلم محبوس فى جبال الرى ، وأنه سيخرج فى وقت حدده لهم . محاكياً فى ذلك لقول الكيسانية فى محمد بن الحنفية .

ويذكر ابن النديم أنه إسحق الترك هذا ، فى بعض الروايات علوى من ولد يحيى بن على ، وأنه خرج إلى بلاد الترك فاراً من بنى أمية ، ثم تستر بمذهب الأبى مسلمية ، وفى روايات أخرى أنه رجل من وراء النهر ، وكان أميًّا ، وله تابع من الجن ، فكان إذا سئل عن شىء ، أجاب بعد ليلة ، فلما قتل أبو مسلم ، دعا الناس إليه ثم تحول إلى الزرادشتية ، وادعى أن «زرادشت حى» «وأصحابه يعتقدون أنه حى لا يموت ، وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم ، وهذا من أسرار الأبى مسلمية» فكأن هذه الروايات الأخيرة تقول إن الأبا مسلمية هى بقايا المجوس من زرادشتية ومزدكية [1] .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٦ .